الآية المفسَّرة قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ فصلت : ٢

يخبر الله تبارك وتعالى أن هذا القرآن تنزيل من عند الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء ، والذي من أعظم رحمته وأجلها إنزال هذا الكتاب الذي حصل به من العلم والهدى والنور والشفاء والرحمة والخير الكثير، ما هو من أجل نعمه على العباد ، وهو الطريق للسعادة في الدارين ، نزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .[1]

تفسير القرآن بالقرآن :

وفيه مطلبان :

المطلب الأول :

تفسير هذه الآية بقوله تعالى:﴿ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٠٢﴾[2] وبقوله تعالى :﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣﴾[3]

يقول ابن كثير رحمه الله تعالى عند تفسيره لقول الله تبارك وتعالى:﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾

{يعني القرآن منزل من الرحمن الرحيم كقوله :﴿ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾}[4]

ويقول ابن عاشور[5] : {والمراد : أنه منزَّل ، فالمصدر بمعنى المفعول كقوله : ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣﴾وهو مبالغة في كونه فَعَل الله تنزيله ، تحقيقاً لكونه موحى به وليس منقولاً من صحف الأولين }[6]

---

[1] ينظر : جامع البيان للطبري ج:٢١ص:٤٢٥ وتيسير الكريم الرحمن للسعدي ص :٧٤٤

[2] النحل :١٠٢

[3] الشعراء : ١٩٢ . ١٩٣

[4] انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج :٧ ص : ١٦١ وانظر : مفاتيح الغيب للرازي ج : ٢٧ ص : ٥٣٧ وتفسير المنير للزحيلي ج : ٢٤ ص : ١٨٥

[5] محمد الطاهر بن عاشور رئيس المفتين المالكيين في تونس ، مفسر لغوي نحوي أديب له في التفسير (التحرير والتنوير) وله أبحاث ومشاركات أدبية وتحقيقات علمية نشره في مجلات وكتب ، توفي سنة : (١٣٩٣) ينظر : (معجم المفسرين لعادل نويهض ج : ٢ ص : ٥٤١)

[6] انظر : التحرير والتنوير ج : ٢٥ ص : ٧ وتفسير المنير للزحيلي ج : ٢٤ ص : ١٨٥فقد أشار إلى آيتي الشعراء

وجه البيان :

إن تفسير آية سورة فصلت بآية سورة النحل والشعراء لهو من تفسير القرآن بالقرآن ، فبعد أن بين الله سبحانه وتعالى أن القرآن الكريم نزل من عنده ، بين في آية سورة النحل وآية الشعراء كيفية ذلك التنزيل وبواسطة من؟ فأخبر أنه نزل به جبريل عليه السلام من عند الله.[١]

وهذا من باب تفسير القرآن بالقرآن كما ذكرت ، وهو من باب بيان أن ذكر الله تعالى وقوع شيء في القرآن ، ثم يذكر في محل آخر كيفية وقوعه.

المطلب الثاني :

أحال الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى تفسير آية سورة فصلت إلى كلامه في أول سورة الزمر [٢] ، وعند تفسيره لآية سورة الزمر قال رحمه الله :{ قد دل استقراء القرآن العظيم ، على أن الله جل وعلا ، إذا ذكر تنزيله لكتابه ، أتبع ذلك ببعض أسمائه الحسنى ، المتضمنة صفاته العليا .

ففي أول هذه السورة الكريمة ، لما ذكر تنزيله كتابه ، بين أن مبدأ تنزيله كائن منه جل وعلا ، وذكر اسمه الله واسمه العزيز والحكيم [٣]، وذكر مثل ذلك في أول سورة الجاثية ، في قوله تعالى : ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾[٤]

، وفي أول سورة الأحقاف في قوله تعالى : ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ۝٣﴾[٥]

وقد تكرر كثيراً في القرآن ذكره بعض أسمائه وصفاته بعد ذكر تنزيل القرآن العظيم ، كقوله في أول سورة غافر ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾[٦]

---

[١] ينظر : تفسير ابن أبي زمنين ج : ١ ص : ٤٤٥

[٢] ينظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٣٨٩

[٣] والآية هي قوله تعالى : ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾ الزُّمَر : ١

[٤] الجاثية ١ . ٣

[٥] الأحقاف ١ . ٣

[٦] غافر ١ . ٣

وقوله تعالى في أول فصلت :﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾[1]. وقوله تعالى في أول هود : ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾[2]

وقوله في فصلت : ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾[3]

وقوله تعالى في صدر يس :﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾[4]

وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣﴾[5]الآية وقوله تعالى : ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٣ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤﴾[6]

ولا يخفى أن ذكره جل وعلا هذه الأسماء الحسنى العظيمة ، بعد ذكره تنزيل هذا القرآن العظيم ، يدل بإيضاحٍ على عظمة القرآن العظيم ، وجلالة شأنه وأهمية نزوله ، والعلم عند الله تعالى }[7].

وجه البيان :

وصف الله نفسه بـ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾ للإيماء إلى أن ما ينزل منه يأتي على ما يناسب الصفتين ، فيكون عزيزاً أي القرآن ، عزيزٌ غالبٌ بالحجة لمن كذّب به ، وغالبٌ بالفضل لما سواه من الكتب من حيث إن الغلبة تستلزم التفضل والتفوق ، وغالبٌ لبلغاء العرب إذ أعجزهم عن معارضة سورة منه .

والحكيم بمعنى الحاكم فهو حاكمٌ عن معارضيه بالحجة ، وحاكمٌ على غيره من الكتب السماوية بما فيه من التفصيل والبيان ، مشتمل على البيان الذي لا يحتمل الخطأ وموصوف بالحكمة ، فالقرآن مشتمل على الحكمة كاتصاف منزّله بها .[8]

---

[1] فصلت ١ . ٢

[2] هود ١

[3] فصلت ٤١ . ٤٢

[4] يس ٥ . ٦

[5] الشعراء ١٩٢ . ١٩٣

[6] الحاقة ٤٣ . ٤٤

[7] انظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٣٥٩

[8] ينظر : التحرير والتنوير ج : ٢٤ ص : ٧ . ٨

ووصْفُ الله بصفتي العزة والعلم في قوله : ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢﴾ هنا تعريض بأن منكري تنزيل الكتاب منه مغلوبون مقهورون ، وبأن الله يعلم ما تكنّه نفوسهم فهو محاسبهم على ذلك ، ورَمْزٌ إلى أن القرآن كلام العزيز العليم فلا يقدر غير الله على مثله ولا يعلم غير الله أن يأتي بمثله .[1]

وفي سورة فصلت ختم الآية بصفة الرحمة في قوله : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ خص هذين الوصفين بالذكر ، {لأن الخلق فى هذا العالم كالمرضى المحتاجين ، والقرآن مشتمل على كل ما يحتاج إليه المرضى من الأدوية ، وعلى كل ما يحتاج إليه الأصحاء من الأغذية ، فكان أعظم النفع من الله على هذا العالم إنزال القرآن الناشئ عن رحمته ولطفه بخلقه }[2]

فالله تبارك وتعالى في هذه الآيات ختم كل آيةٍ بما يناسبها وذلك شأن القرآن كله ، فالآيات التي ذكر الله تعالى فيها تنزيله لكتابه ، وأتبع ذلك ببعض أسمائه الحسنى المتضمنة صفاته العليا كما ورد في الآية الكريمة في أول سورة فصلت حيث ذكر تنزيله لكتابه ، وبين أن مبدأ تنزيله كائن منه جل وعلا أتبعها بذكر اسمه تعالى الرحمن والرحيم هي من باب تفسير القران بالقران وذلك أن الله تبارك وتعالى ذكر فيها تنزيله لكتابه وأتبع ذلك بذكر أسمائه الحسنى للدلالة على عظمة هذا القرآن ، وعظم منزله عز وجل ، وبيان أن نزوله من عند الله تبارك وتعالى لا من عند غيره كما يزعم بذلك بعض المشركين .

ومما ذكرته يتبين أن قوله تعالى:﴿ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ مبينٌ لقول الله تعالى : ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ ، وكذلك آية الشعراء ، حيث ذكر الله تعالى في الآية الكريمة أن نزول القرآن على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما هو بواسطة جبريل ـ عليه السلام ـ فبين كيفية ذلك التنزيل ، وكذلك الآيات التي ذكرها الشنقيطي رحمه الله ففيها بيانٌ لعظمة هذا الكتاب وبيان أن نزوله من لدن حكيمٍ خبير .

---

[1] ينظر : التحرير والتنوير ج : ٢٤ ص : ١٤٤

[2] انظر : حاشية الجمل على الجلالين ج : ٤ ص : ٢٨

الآية المفسرة قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣﴾ فصلت:٣

يخبر الله تعالى عن القرآن الكريم بأنه كتاب بينت وفسرت آياته بالوعد والوعيد أو بالثواب والعقاب ، وبيان الحلال والحرام والطاعة والمعصية وَأَنزله الله تعالى باللغة العربية ليسهل على أهل العقول والألباب من العرب قراءته وفهم معانيه .[1]

تفسير القرآن بالقرآن :

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول :

عند الوقوف على كلام الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية نجد أنه فصلها كما يلي:

- أولا : قوله تعالى : ﴿كِتَٰبٌ﴾ قال رحمه الله : {وإنما قيل له كتاب ، لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ ، كما قال تعالى : ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾ }[2]

وجه البيان :

الظاهر والله تعالى أعلم أن الشيخ رحمه الله تعالى أورد هذه الآية استشهاداً بها على كلامه أن القرآن الكريم مكتوبٌ في اللوح المحفوظ ، واستشهاد الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى لقوله تعالى : ﴿كِتَٰبٌ﴾ بآيتي سورة البروج لهو من تفسير القرآن بالقرآن ، حيث إن الله تبارك وتعالى بين في آيتي سورة البروج بأن الكتاب وهو القرآن الكريم مكتوب في اللوح المحفوظ .

فالجار والمجرور في قوله :﴿فِي لَوۡحٖ﴾ متعلق بنعت ثان لقرآن[3] ومعلوم أن المراد بالكتاب هو القرآن الكريم .

وكما وصف الله تعالى القرآن بأنه :﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾ ، فقد وصفه قبل ذلك بأنه :﴿قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾ أي البالغ النهاية في الشرف والرفعة والعظمة[4]، وكلا الوصفين جعلهما الله لكتابه

---

[1] ينظر : تفسير العز بن عبدالسلام ص : ٥٠٢ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج : ١٥ ص ٢١٧

[2] البروج ٢١-٢٢

[3] ينظر : الجدول في إعراب القرآن لمحمود بن عبدالرحيم صافي ج : ١٥ ص : ٢٩٧

[4] ينظر : التفسير الوسيط لسيد طنطاوي ج : ١٥ ص : ١٤٩

، ومعلوم أن من أنواع البيان للقرآن الكريم أن يذكر شيء له أوصاف مذكورة في مواضع أخر كما ذكر ذلك الشيخ الشنقيطي رحمه الله.[1]

- ثانيا: قوله تعالى : ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ قال رحمه الله : {وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تفصيل آيات هذا الكتاب ، جاء موضحاً في آيات أخر ، مبيناً فيها أن الله فصله على علمٍ منه وأن الذي فصله حكيمٌ خبيرٌ ، وأنه فصله ليهدي به الناس ويرحمهم ، وأن تفصيله شامل لكل شيء ، وأنه لا شك أنه منزل من الله كقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ }[2]

وجه البيان :

أجمل الله سبحانه وتعالى التفصيل المذكور في سورة فصلت ، وبين التفصيل ووضحه في سورة الأعراف ، فبين الله تبارك وتعالى أنه فصل القرآن على علم منه .

فالبيان الذي ذكره الله تبارك وتعالى في آية الأعراف وهو قوله تعالى :﴿ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ له تعلق بقوله تعالى :﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ ، فالله تبارك وتعالى عندما ذكر التفصيل في سورة فصلت ، ذكر في سورة الأعراف شيئاً يتعلق بذلك التفصيل وهو أنه فصله على علمٍ منه تبارك وتعالى ، وهذا من إيضاح القرآن بالقرآن ، وهو ما أشار إليه الشيخ الشنقيطي بقوله : {ومن أنواع البيان التي تضمنها أيضا أن يذكر أمراً في موضع ، ثم يذكر في موضع آخر شيئاً يتعلق بذلك الأمر ، كأن يذكر له سبباً أو مفعولاً أو ظرف مكان أو ظرف زمان أو متعلقاً} .[3]

وكذلك في كلام الشيخ الشنقيطي السابق عند شرحه لآية سورة فصلت قال رحمه الله: {وأنه فصله ليهدي به الناس ويرحمهم}[4]، ذكر الشيخ رحمه الله سبباً لتفصيل الآيات ، وهذا السبب لم يذكر في آية سورة فصلت ، وإنما بينه الله تعالى في آية سورة الأعراف .

---

[1] ينظر : أضواء البيان ج : ١ ص : ٤١

[2] الأعراف : ٥٢ أضواء البيان ج : ٤ ص : ٣٨٩

[3] انظر : أضواء البيان ج : ١ ص : ٣٥

[4] انظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٣٨٩

يقول ابن جرير رحمه الله تعالى عند تفسيره لقوله تعالى:﴿ هُدًى وَرَحْمَةً﴾: {ليُهْدى ويرحم به قوم يصدقون به، وبما فيه من أمر الله ونهيه وأخباره ووعده ووعيده، فينقذهم به من الضلالة إلى الهدى}[1].

ويقول الألوسي[2] رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية قال رحمه الله :{حال من مفعول﴿ فَصَّلْنَاهُ﴾وجوز أن يكون مفعولاً لأجله وأن يكون حالاً من الكتاب لتخصيصه بالوصف ، والكلام في وقوع مثل ذلك حالاً مشهوراً }[3].

وهذا لا شك أنه من أنواع البيان للقرآن فإن الله تعالى ذكر أمرا في آية فصلت ، وهو أنه تبارك وتعالى فصل الآيات ، ثم ذكر في آية الأعراف أمرا يتعلق بذلك التفصيل ، وهو أنه فصله ليهدي به الناس ويرحمهم ، فذكر سبباً لتفصيل الآيات.

- ثالثا : قوله :﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ قال رحمه الله : {قوله قرآناً عربياً قد تكلمنا عليه وعلى الآيات التي بمعناه في القرآن في سورة الزمر ، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٢٨﴾[4]}[5].

عند الرجوع لآية سورة الزمر قال الشيخ رحمه الله تعالى : { وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿عَرَبِيًّا﴾[6]. ، أي : لأنه بلسان عربي كما قال تعالى : ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣﴾[7]}[8]

---

[1] انظر : جامع البيان للطبري ج : ١٢ ص : ٤٧٧

[2] شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني فقيه ومفسر ومحدث ،كان سلفي الاعتقاد ومجتهدا من كتبه : (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني وغرائب الاغتراب ضمنه تراجم الذين لقيهم) توفي سنة : (١٢٧٠) ينظر : (فهرس الفهارس للكتاني ج : ١ ص : ١٣٩ والأعلام ج : ٧ ص : ١٧٦ وحلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ج : ٢ ص : ١٢٥)

[3] انظر : روح المعاني للألوسي ج : ٨ ص : ١٩٠

[4] الزمر : ٢٨

[5] انظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٣٩٠

[6] الزمر : ٢٨

[7] النحل : ١٠٣

[8] انظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٣٦٥

وجه البيان :

إن الناظر في آية سورة فصلت وآيتي سورتي الزمر والنحل ، يجد أنها تتحدث في موضوعٍ واحد ، وهو بيان نزول القرآن الكريم بلسان عربي ، فإحالة الشيخ رحمه الله تعالى لبيان الآية بهذه الآيات يدخل في المصطلح الموسع لتفسير القرآن بالقرآن ، وهو من باب جمع الآيات المتشابهة في الموضوع أو المعنى .

- وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ {أي فصلت آياته في حال كونه قرآنا عربيا لقوم يعلمون .

وإنما خصهم بذلك ، لأنهم هم المنتفعون بتفصيله كما خصهم بتفصيل الآيات في سورة يونس في قوله تعالى : ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾ }[1]

وجه البيان :

إن الناظر في آيتي سورتي يونس وفصلت يجد أنهما جاءتا في موضوع واحد ، وهو أن الله عز وجل ذكر فيهما تخصيص بعض عباده بتفصيل آياته ، وذلك لأنهم هم الذين ينتفعون بما اشتمل عليه هذا الكتاب من تفصيل لآياته التي شملت الألفاظ والمعاني [2] .

فالله تبارك وتعالى بين في كلتا الآيتين أنه يفصل الآيات لقوم يعلمون لأنهم هم المنتفعون بهذا التفصيل ، فبيان الآية بآية سورة يونس يدخل في المصطلح الموسع لتفسير القرآن بالقرآن وهو من قبيل جمع الآيات المتشابهة في المعنى .

المطلب الثاني :

فسر ابن كثير رحمه الله تعالى قوله تعالى : ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ بقول الله تعالى : ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [3] .

---

[1] يونس : ٥ وينظر أضواء البيان ج : ٤ ص : ٣٨٩-٣٩٠

[2] ينظر : تفسير سيد طنطاوي ج : ١٢ ص : ٣٢٥

[3] هود :١

يقول ابن كثير رحمه الله تعالى : {وقوله: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: بُينت معانيه وأحكمت أحكامه ،﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ أي: في حال كونه لفظاً عربياً بينا واضحاً ، فمعانيه مفصلة ، وألفاظه واضحة غير مشكلة ، كقوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ }[1]

وجه البيان :

عند الرجوع لكلام المفسرين رحمهم الله تعالى وما كتبوه في هاتين الآيتين نجد أن تفسيرهم لهاتين الآيتين متشابه ، فابن كثير مثلاً فسر آية سورة فصلت بأن القرآن بُينت معانيه وأحكمت آياته ، وعند النظر لتفسيره لآية سورة هود نرى أن تفسيره مقارب لما قاله في آية سورة فصلت حيث قال رحمه الله تعالى : {وأما قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ أي: هي محكمة في لفظها ، مفصلة في معناها ، فهو كامل صورة ومعنى . هذا معنى ما روي عن مجاهد، وقتادة، واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ أي: من عند الله الحكيم في أقواله ، وأحكامه ، الخبير بعواقب الأمور}[2]

فكلتا الآيتين اشتركتا في معنى واحد ، وهو أن الله تعالى بين أن القرآن بينت معانيه وأنه محكم في لفظه ، ولكن في قوله تعالى :﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ بيانٌ أن هذا الكتاب بينت معانيه من الله تبارك وتعالى فتكون هذه الآية مبينة لقوله تعالى : ﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾[3] حيث إن الله تعالى لم يذكر في آية فصلت من المفصّل لهذه الآيات ، وبين في آية هود أن التفصيل إنما هو من الله عز وجل ، ففيه بيانٌ لآية فصلت .

---

[1] انظر : تفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٦١

[2] انظر : تفسير ابن كثير ج : ٤ ص : ٣٠٣ وفي قول ابن كثير رحمه الله : { الخبير بعواقب الأمور } نظر لأن الأولى التعميم فالله تعالى خبير عظيم العلم بأحوال العباد وما يصلحهم في أمر دينهم ودنياهم .

[3] فصلت : ٣

المطلب الثالث :

يقول ثناء الله الهندي عند تفسيره لقول الله تعالى : ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ قال :{المتعلقة بالتوحيد والمعاد والاعتقاد لقوله تعالى:﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [1]

قوله تعالى: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣﴾ الذين يعملون على مقتضى علمهم لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ }[2]

وجه البيان :

إن تفسير الشيخ ثناء الله الهندي لآية سورة فصلت بآية سورة النحل من تفسير القرآن بالقرآن ، فآية سورة فصلت يخبر الله تعالى فيها أن القرآن كتاب فصلت آياته ، وبينت معانيه ، وأن الذي فصله هو الله تبارك وتعالى ، وآية سورة النحل يبين الله تعالى لنا فيها أنه أنزل القرآن على رسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليبين للناس ما أنزل إليهم من ربهم ، فالله تعالى أجمل في آية فصلت ما يتعلق بهذا التفصيل ، ثم بين هذا الإجمال وأوضحه من خلال آية سورة النحل ببيان أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكلفٌ ببيان وتفصيل آيات الكتاب .

وأما تفسيره واستشهاده رحمه الله تعالى بآية سورة الجمعة لم يتبين لي أنها من تفسير القرآن بالقرآن ، فالآية ليس فيها وجه بيان لآية فصلت فآية فصلت بين الله تعالى فيها أنه فصل القرآن وبينه ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ لأنهم هم المنتفعون بها ، وآية سورة الجمعة تتحدث عن الذين كُلفوا بالعمل بالتوراة ثم لم يعملوا بها وهم اليهود ، شبههم الله تعالى بالحمار الذي يحمل كتباً لا يدري ما فيها[3] والعلم عند الله تعالى .

يتبين مما سبق صحة تفسير قول الله تعالى :﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ ، بما فسره الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى بالآيات المذكورة سابقاً ، وبآية سورة النحل ، فالله تعالى ذكر فيها ما يتعلق بآية سورة فصلت من وصفٍ للقرآن الكريم ، ومن متعلقٍ بالآية وبيانٍ لإجمال .

---

[1] النحل : ٤٤

[2] الجمعة : ٥ وانظر : تفسير القرآن بكلام الرحمن ص٦٠٦. ٦٠٧

[3] ينظر : تفسير القرآن العظيم ج : ٨ ص : ١١٧

وكذلك صحة تفسير قوله تعالى :﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ بآية سورة يونس فكلتا الآيتين متشابهتان وهما في معنى واحد والعلم عند الله تعالى .

الآية المفسرة قوله تعالى :﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾ فصلت : ٤

يخبر الله تعالى أنه أنزل القرآن ليكون مبشراً لمن ءامن به ، ومنذراً للكافرين بالعذاب الأليم والخزي في الدنيا والآخرة ، فاستكبر أكثر هؤلاء المشركين عما فيه من النور والهدى فلم يهتدوا به ،﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لإعراضهم عن ما احتوى عليه من الحجج والبراهين ، فهم لا يسمعون له سماع قَبول وإجابة. [1]

تفسير القرآن بالقرآن :

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول :

بيان قول الله تعالى:﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾

أحال الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى الكلام على قول الله تعالى:﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ إلى قوله تعالى :﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢﴾ [2].

وعند الوقوف على كلام الشيخ رحمه الله تعالى نجد أنه فسر الآية بقول الله تعالى :﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ۝٩٧﴾ [3] يقول رحمه الله : {وقد أشار تعالى في هذه الآية الكريمة إلى أن هذا القرآن العظيم تخويف وتهديد للكافرين ، وبشارة للمؤمنين المتقين ؛ إذ قال في تخويف الكفرة به :﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾، وقال : ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾ [4]، وقال في بشارته للمؤمنين :﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢﴾ وهذا الذي ذكره هنا من كونه إنذارا لهؤلاء وبشارة لهؤلاء بينه في مواضع أخر ؛ كقوله : ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ۝٩٧﴾ } [5].

وجه البيان :

---

[1] ينظر : جامع البيان للطبري ج : ٢١ص : ٤٢٥ وتفسير البحر المحيط ج :٩ ص: ٢٨٥ وتفسير القرآن العظيم ج : ٧ ص : ١٦١

[2] الكهف :٢ وانظر أضواء البيان ج : ٤ ص : ٣٩٠

[3] مريم : ٩٧

[4] الكهف : ٤

[5] انظر : أضواء البيان ج : ٢ ص :٣٣٤

أجمل الله تعالى في آية سورة فصلت ما يتعلق بالبشارة والإنذار ، وجاء في آيتي سورتي الكهف ومريم بيان هذا الإجمال ، فبين أن المبشرين هم المؤمنون وبشروا بأن لهم عند الله تعالى ثوابا حسنا ، وأن المنذرين هم كل من خالفوه ولم يؤمنوا به وأنذروا بالعقوبة العاجلة والآجلة في الدنيا والآخرة .

ودل على المنذرين سياق الآيات في سورة الكهف حيث يقول الله تعالى :﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾[1].

فالله تعالى أشار في هذه الآية الكريمة إلى أن هذا القرآن العظيم أنزل لينذر ويحذر الكافرين الذين قالوا : اتخذ الله ولدا .

ومن خلال النظر إلى كلام المفسرين رحمهم الله تعالى لآية سورة فصلت نجد أنهم بينوا هذا الإجمال للآية كما هو مبين من خلال آيتي سورة الكهف وآية سورة مريم .[2]

يقول الإمام البغوي[3] رحمه الله تعالى :﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾{نعتان للقرآن أي: بشيرًا لأولياء الله، ونذيرًا لأعدائه}[4]

ويقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى :﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾أي: {بشيرًا بالثواب العاجل والآجل، ونذيرًا بالعقاب العاجل والآجل، وذكر تفصيلهما، وذكر الأسباب والأوصاف التي تحصل بها

---

[1] الكهف :٤

[2] انظر : تفسير مقاتل بن سليمان ج : ٣ ص : ١٦٠ وجامع البيان ج : ٢١ ص : ٤٢٨ وتفسير ابن أبي زمنين ج :٢ ص : ٢٦٥ وتفسير السلمي ج : ٢ ص : ٢١٥ وتفسير السمعاني ج : ٥ ص : ٣٦ ومعالم التنزيل للبغوي :١١٤٦ والمحرر الوجيز : ١٦٤٦ ومفاتيح الغيب ج : ٢٧ ص : ٥٣٨ وتفسير القرطبي ج : ١٥ ص : ٢١٧ وتفسير البيضاوي ج : ٥ ص : ١٠٥ وتفسير الخازن ج : ٤ ص : ٨٣ والبحر المحيط ج : ٩ ص : ٢٨٥ وتفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٦١ وتفسير أبي السعود ج : ٦ ص : ٤٧ ٣٢٥ وفتح القدير ج : ٤ ص : ٦ و محاسن التأويل للقاسمي ج :١٤ ص : ٢٥٤ وتفسير السعدي : ٧٤٤ والتحرير والتنوير ج : ٢٥ ص : ٩ والتفسير القرآني للقرآن ج : ١٢ ص : ١٢٨١ . ١٢٨٢ والتفسير المنير للزحيلي ج : ٢٤ ص : ١٨٦ التفسير الواضح ج : ٣ ص : ٣٢٥ وتفسير المراغي ج : ٢٤ ص : ١٠٥

[3] هو الحسين بن مسعود بن محمد العلامة أبو محمد البغوي الفقيه الشافعي ، يعرف بابن الفراء ويلقب بمحيي السنن وركن الدين ، توفي سنة : (٥١٦هـ) ينظر : (تذكرة الحفاظ للذهبي ج : ٤ ص : ٣٧ وطبقات المفسرين للسيوطي : ٣٨)

[4] انظر : معالم التنزيل للبغوي : ١١٤٦

البشارة والنذارة، وهذه الأوصاف للكتاب مما يوجب أن يُتَلقَّى بالقبول والإذعان والإيمان والعمل به }[1]

فوجه البيان لآية سورة فصلت بآية سورة الكهف ظاهر ، فالله تعالى أجمل في آية فصلت البشارة والنذارة ، وبين في آيتي سورة الكهف هذا الإجمال ، فبيان الآية بآيتي سورتي الكهف ومريم بيان صحيح وهو من تفسير القرآن بالقرآن ، وهو من قبيل بيان الإجمال .

المطلب الثاني :

بيان قوله تعالى :﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ﴾

أحال الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى الكلام على هذه الآية إلى قول الله تعالى : ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٧﴾[2]

وبالوقوف على كلامه لآية سورة يس قال رحمه الله تعالى : {وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ﴾، يدل على أن أكثر الناس من أهل جهنم ، كما دلت على ذلك آيات كثيرة ؛ كقوله تعالى :﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٧﴾[3]}[4] .

وجه البيان :

يبين الله تبارك وتعالى أن المراد بإعراض الناس في قوله سبحانه : ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ﴾ هو شركهم وعدم إيمانهم بالقرآن المنزل على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فبيان الآية بآية سورة هود يدخل في المصطلح المطابق لتفسير القرآن بالقرآن ، وهو من قبيل بيان معنى آية بآية أخرى والعلم عند الله تعالى .

المطلب الثالث :

بيان قوله تعالى : ﴿ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ :

---

[1] انظر : تيسير الكريم الرحمن للسعدي : ٧٤٤

[2] يس :٧ وانظر أضواء البيان ج : ٤ ص: ٣٩٠

[3] هود : ١٧

[4] هود : انظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٣١٨

يقول الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى :

{أي لا يسمعون سماع قبول وانتفاع .

وقد أوضحنا ذلك بالآيات القرآنية في سورة النمل في الكلام على قوله تعالى :﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾[1] الآية }[2].

عند الرجوع لتفسير الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى لآية سورة النمل نجد أنه ذكر أنه لا يصح عن العلماء في تفسير قوله تعالى :﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ إلا تفسيران :

الأول :{أن المعنى : ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ : أي لا تسمع الكفار ، الذين أمات الله قلوبهم ، وكتب عليهم الشقاء في سابق علمه إسماع هدىً وانتفاع لأن الله كتب عليهم الشقاء ، فختم على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وجعل على قلوبهم الأكنة ، وفي آذانهم الوقر ، وعلى أبصارهم الغشاوة ، فلا يسمعون الحق سماع اهتداء وانتفاع . ومن القرائن القرآنية الدالة على ما ذكرنا ، أنه جل وعلا قال بعده :﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾[3]

فاتضح بهذه القرينة أن المعنى :﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ ، أي : الكفار الذين هم أشقياء في علم الله إسماع هدى وقبول للحق ، ما تسمع ذلك الإسماع ، إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ، فمقابلته جل وعلا بالإسماع المنفي في الآية عن الموتى بالإسماع المثبت فيها لمن يؤمن بآياته ، فهو دليل مسلم واضح على أن المراد بالموت في الآية موت الكفر والشقاء ، لا موت مفارقة الروح للبدن.

ثم قال رحمه الله : إذا علمت أن هذه القرينة القرآنية دلت على أن المراد بالموتى هنا الأشقياء ، الذين لا يسمعون الحق سماع هدى وقبول .

فاعلم أن استقراء القرآن العظيم يدل على هذا المعنى ؛ كقوله تعالى : ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾[4] وقد أجمع من يعتد به من أهل العلم أن المراد بالموتى في قوله : والموتى يبعثهم الله : الكفار .

---

[1] النمل : ٨٠

[2] انظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٣٩٠

[3] النمل : ٨٠

[4] الأنعام : ٣٦

التفسير الثاني : هو أن المراد بالموتى الذين ماتوا بالفعل ، ولكن المراد بالسماع المنفي في قوله : ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ خصوص السماع المعتاد الذي ينتفع صاحبه به ، وأن هذا مثل ضرب للكفار ، والكفار يسمعون الصوت ، لكن لا يسمعون سماع قبول بفقه واتباع كما قال تعالى : ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾[1]

فهكذا الموتى الذين ضرب بهم المثل لا يجب أن ينفى عنهم جميع أنواع السماع كما لم ينفى ذلك عن الكفار ، بل قد انتفى عنهم السماع المعتاد الذي ينتفعون به ، وأما سماع آخر فلا }[2].

وجه البيان :

يبين الله تبارك وتعالى في قوله سبحانه :﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾[3] أن المراد بالسماع المنفي عن الكفار في قوله سبحانه : ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[4] ، هو السماع الذي لا ينتفع به صاحبه وذلك أن الله تعالى أخبر نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قوله سبحانه : ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾[5] أن الكفار الذين أمات الله قلوبهم لا يسمعون الحق سماع هدىً وانتفاع ، وبين له في سياق الآيات أن من آمن بآياته هو الذي يسمع سماعاً ينتفع به ويهتدي به .

فبيان قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ بقوله سبحانه : ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ بيان صحيح وهو من تفسير القرآن بالقرآن ، وهو من قبيل بيان معنى آية بآية أخرى والعلم عند الله تعالى .

ومن خلال ما سبق ذكره يتبين صحة تفسير قوله تعالى :﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾ بآيات سور الكهف وهود والنمل .

---

[1] البقرة : ١٧١

[2] ينظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٢٠٩ ـ ٢١١

[3] النمل : ٨٠

[4] فصلت : ٤

[5] النمل : ٨٠

الآية المفسرة قوله تعالى : ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥﴾ فصلت : ٥

يخبر الله تعالى عن المشركين أنهم قالوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما دعاهم للتوحيد قالوا له : قلوبنا في أغطية مغشاة لا تفقه ما تقول ، وفي آذاننا صمم فكلامك لا يدخل أسماعنا، ومن بيننا وبينك يا محمد ساتر لا نجتمع من أجله نحن وأنت ، فيرى بعضنا بعضا، وذلك الحجاب هو اختلافهم في الدين ، لأن دينهم كان عبادة الأوثان ، ودين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عبادة الله وحده لا شريك له ، فاعمل لدينك فإننا عاملون لديننا .[1]

تفسير القرآن بالقرآن :

وفيه ثلاث مطالب :

المطلب الأول :

بيان قوله تعالى حكاية عن المشركين : ﴿ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ ﴾: بقوله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾[2]

ذكر الشيخ الشنقيطي رحمه الله هذه الآية عند بيانه لقوله تعالى حكاية عن المشركين ﴿ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ ﴾ حيث قال رحمه الله تعالى : { وقالوا إن في آذانهم التي يسمعون بها وقراً أي : ثقلاً وهو الصمم . وأن ذلك الصمم مانع لهم من أن يسمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً وما يقول ، كما قال تعالى عنهم :﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ }[3].

وجه البيان :

أبهم الله تعالى الوقر في قوله حكاية عنهم :﴿ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ ﴾، وبين في الآية السابقة أن الوقر هو عدم السماع (الصمم).

يقول ابن عاشور : { والوقر بفتح الواو : ثقل السمع وهو الصمم ، وكأن اللغة أخذته من الوقر بكسر الواو ، وهو الحمل لأنه يثقل الدابة عن التحرك ، فأطلقوه على عدم تحرك

---

[1] ينظر : تفسير الطبري ج : ٢١ص : ٤٢٩ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج : ١٥ ص : ٢١٨ وفتح القدير للشوكاني ج : ٤ ص : ٦ وتفسير السعدي : ٧٤٥

[2] فصلت :٢٦

[3] فصلت : ٢٦ وانظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٣٩١

السمع عند قرع الصوت المسموع ، وشاع ذلك حتى ساوى الحقيقة ففتحوا له الواو تفرقة بين الحقيقة والمجاز }[1] .

ويقول ابن عطية [2]: {والوقر الثقل في الأذن الذي يمنع السمع }[3].

ويقول ابن أبي زمنين[4] عند تفسيره للآية :{أي صمم عنه فلا نسمعه }[5]

فباتفاق المفسرين أن الوقر هو الصمم ، وكما ذكرت أن الله تعالى أبهم الوقر في الآية وبين معناه بقوله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ ، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن ، فمن أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك بيان الإجمال الواقع بسبب إبهام .

ثم أتبع الشيخ رحمه الله تعالى بيانه للآية وذكر إشكالاً وأجاب عليه مستدلاً بآيات من القرآن الكريم ، والإشكال هو :

{أن الله تعالى ذمهم على دعواهم الأكنة والوقر والحجاب في آية سورة فصلت ، وبين في آيات أخر أنه ما ذمهم على ادعائه واقع بهم فعلاً ، وأنه تعالى هو الذي جعله فيهم كما قال تعالى في سورة الإسراء : ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ٤٥ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾[6] }

ثم قال رحمه الله : {فيقال : كيف يذمون على قول شيء ، هو حق في نفس الأمر ؟

قال رحمه الله : والتحقيق في الجواب عن هذا الإشكال ، هو ما ذكرناه مراراً ، من أن الله جعل على قلوبهم الأكنة ، وطبع عليها وختم عليها ، وجعل الوقر في آذانهم ، ونحو ذلك

---

[1] انظر : التحرير والتنوير ج : ٢٥ ص : ١٠

[2] هو الإمام قدوة المفسرين القاضي عبد الحق بن غالب بن عبد الملك بن تمام بن عطية ، أبو محمد الأندلسي الغرناطي المالكي ، ولد سنة : (٤٨٠هـ)كان فقيهاً عارفاً بالأحكام والحديث والتفسير بارعاً في الأدب توفي سنة : (٥٤٢هـ) ينظر : (سير أعلام النبلاء ج : ١٩ ص : ٥٨٨ وطبقات المفسرين : ٥٠)

[3] انظر : المحرر الوجيز :١٦٤٦

[4] محمد بن عبد الله بن عيسى ابن أبي زمنين المدى البيري أبو عبد الله ، له مصنفات كثيرة منها : (مختصر تفسير ابن سلام للقران ، المنتخب في الأحكام ، أصول السنة) توفي سنة (٣٩٩هـ) ينظر : (سير أعلام النبلاء ج : ١٧ ص:١٨٨.١٨٩ و طبقات المفسرين للداودي ج:٢ ص:١٦٥.١٦٦)

[5] انظر : تفسير ابن أبي زمنين ج : ٢ ص : ٢٦٥

[6] الإسراء :٤٥. ٤٦ وذكر هذه الآية أيضاً الشيخ ثناء الله الهندي : ٦٠٧

من الموانع من الهدى ، بسبب أنهم بادروا إلى الكفر ، وتكذيب الرسل طائعين مختارين ، فجزاهم الله على ذلك الذنب الأعظم ، طمس البصيرة ، والعمى عن الهدى ، جزاءً وفاقاً }[1] .

ثم ذكر رحمه الله تعالى الآيات المصرحة بهذا المعنى ، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [2] ، وقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾[3]، وقوله تعالى :﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾[4] وغيرها من الآيات التي ذكرها الشيخ الشيخ رحمه الله تعالى التي تقرر أن ما سُبِّبَ لهم من الأكنة والوقر والحجاب ، بسبب مبادرتهم إلى الكفر ، وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم .[5]

وجه البيان :

إن بيان الشيخ رحمه الله لآية سورة فصلت بالآيات السابقة لهو من تفسير القرآن بالقرآن ، فالله تبارك وتعالى أخبر عن المشركين بأنهم قالوا :﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [6] ، وأكد على ذلك في قوله تعالى :﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [7]

فبين تبارك وتعالى أنه هو الذي جعله فيهم ، ثم بين في آيات سور النساء والمنافقون والصف ، أن سبب ما حصل لهم هو مبادرتهم إلى الكفر بالله وبرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فمن أنواع البيان التي تضمنها القرآن الكريم أن يذكر أمراً في موضع ، ثم في موضع آخر يذكر أمراً يتعلق به فذكر في هذه الآيات سبباً يتعلق بما حصل بهم وهو مبادرتهم إلى الكفر بالله وبرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

---

[1] ينظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٣٩١

[2] النساء : ١٥٥

[3] المنافقون : ٣

[4] الصف : ٥

[5] ينظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٣٩١ ـ ٣٩٢

[6] فصلت : ٥

[7] الإسراء : ٤٥ ـ ٤٦

ويقول أبو جعفر النحاس[1] عند قول الله تعالى :﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ { أي مالوا عن الحق .﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ مجازاة على فعلهم ، وقيل أزاغ قلوبهم عن الثواب }[2] .

ويقول الشنقيطي رحمه الله : {فالباء في قوله: ﴿ بِكُفۡرِهِمۡ﴾ سببية ، وهي دالة على أن سبب الطبع على قلوبهم هو كفرهم ، والأكنة والوقر والطبع كلها من باب واحد .

والفاء في قوله :﴿فَطُبِعَ﴾ سببية أي ثم كفروا ، فطبع على قلوبهم بسبب ذلك الكفر .

وكقوله تعالى :﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ فبين أن زيغهم الأول ، كان سبباً لإزاغة الله قلوبهم ،وتلك الإزاغة قد تكون بالأكنة والطبع والختم على القلوب }[3].

المطلب الثاني :

بيان قوله تعالى: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾[4] :

أحال الشيخ الشنقيطي رحمه الله بيان الآية إلى قول الله تعالى :﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ٤٥﴾[5]

وعند الرجوع إلى تفسيره لآية سورة الإسراء بين أن في الآية وجهان من التفسير:

الأول ـ أن المعنى :{وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً: أي حائلاً وساتراً يمنعهم من تفقه القرآن وإدراكه لئلا يفقهوه فينتفعوا به .

ثم قال : وعلى هذا القول فالحجاب المستور هو ما حجب الله به قلوبهم عن الانتفاع بكتابه .

---

[1] هو أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي المصري، أبو جعفر النحاس : إمام العربية النحوي ، روى الحديث عن النسائي وأخذ النحو عن الأخفش الصغير ، له (تفسير القرآن) وكتاب (الناسخ والمنسوخ) ، توفي عام ٣٣٨هـ . ينظر : (سير أعلام النبلاء ج : ١٥ ص : ٤٠١ ، وشذرات الذهب ج : ٢ ص :٣٤٦ ، ومعجم المؤلفين ج : ٢ ص : ٨٢)

[2] انظر : إعراب القرآن لأبي جعفر ابن النحاس ج : ٤ ص : ٢٧٧

[3] انظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٣٩١ ـ ٣٩٢

[4] فصلت : ٥

[5] الإسراء : ٤٥

ثم استشهد بعدة آيات منها آية سورة فصلت قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥﴾[1] وقال تعالى : ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾[2] وقال تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾[3]

الوجه الثاني في الآية : أن المراد بالحجاب المستور أن الله يستره عن أعين الكفار فلا يرونه}.[4]

ثم ساق رحمه الله رواية عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت : لما نزلت ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١﴾[5] جاءت العوراء أم جميل ولها ولولة[6] وفي يدها فهر وهي تقول : : مذمم أتينا – أو أبينا – (قال أبو موسى :الشك مني) ، ودينه قلينا ، وأمره عصينا ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وأبو بكر إلى جنبه ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك ، فقال: (إنها لن تراني) وقرأ قرآنا اعتصم به منها: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ٤٥﴾[7] ، قال: فجاءت حتى قامت على أبي بكر فلم ترى النبي صلى الله عليه وسلم وقالت: يا أبا بكر بلغني أن صاحبك هجاني ، قال أبو بكر: لا ورب هذا البيت ما هجاك قال: فانصرفت وهي تقول : لقد علمت قريش أني بنت سيدها .[8]

وجه البيان :

---

[1] فصلت : ٥

[2] البقرة : ٧

[3] الكهف : ٥٧

[4] انظر : أضواء البيان ج : ٢ ص : ٣١١

[5] المسد : ١

[6] ولْوَلَتِ المرأةُ ولْوَلَةً وولْوالاً، إذا أعْوَلت ودعت بالويل انظر : (الصحاح في اللغة ج : ٢ ص : ٢٩٥ والمعجم الوسيط ج : ٢ ص : ١٠٥٧)

[7] الإسراء : ٤٥

[8] رواه أبو يعلى ج : ٤ ص : ٢٤٦ رقم الحديث : ٢٣٥٨ والحاكم : ج ٢ ص : ٣٩٣ رقم الحديث : ٣٣٧٦ باب باب تفسير سورة بني إسرائيل وقال : (صحيح الإسناد) ، وابن أبي حاتم ج : ٧ ص : ٥٧٤ وصححه ، والبيهقي في الدلائل ج : ٢ ص : ١٩٥ باب قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ٤٥﴾

بعد أن أخبر الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه إذا قرأ القرآن جعل بينه وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ، أكد هذا المعنى في آيتي البقرة والكهف وبين أنه طبع على قلوب هؤلاء الكفار وجعل عليها أغطيةً وغشاوةً لئلا يفهموا هذا القرآن والبيان [1]، فالله تعالى بين أن المراد بالحجاب هو الختم على قلوب هؤلاء الكفار وجعل عليها أغطيةً حيث إنه يحجبهم عن الانتفاع به ، ففي الآية تفسير لمعنى الحجاب الوارد في آيتي الإسراء وفصلت .

وفي قول الله تعالى :﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ ذكر الله عز وجل صفةً للحجاب وهو كونه :﴿مَّسْتُورًا﴾ فقد ذكر أهل النحو أن قوله تعالى :﴿مَّسْتُورًا﴾ نعت لحجاب[2] .

فالله تبارك وتعالى ذكر وصفاً لقوله :﴿حِجَابٌ﴾ ذكره في آية سورة الإسراء ، ومن أنواع البيان التي تضمنها القرآن الكريم أن يذكر شيئاً له أوصاف مذكورة في مواضع أخر .

المطلب الثالث :

يقول الشيخ ثناء الله الهندي في تفسيره لآية سورة فصلت : {﴿وَقَالُوا ﴾أي الكفار عموماً ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾صدقوا لقوله تعالى ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ ﴿ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ صمم فلا نسمع ما تقول وما نعي ما تريد صدقوا لقوله تعالى :﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾[3] ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ صدقوا أيضاً لقوله تعالى :﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾[4] قالوا هذا كله استهزاءً كقوله تعالى :﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾[5] ﴿ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾﴾ لا تتعرض لنا ولا نتعرض لك وغرضهم طلب المداهنة من الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لقوله تعالى :﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ }[6] [6]

وجه البيان :

---

[1] ينظر : تفسير ابن كثير ج : ١ ص : ١٧٠

[2] انظر : إعراب القرآن الكريم للأستاذ الدكتور محمد إبراهيم الطيب : ٢٨٦

[3] الإسراء : ٤٦

[4] الإسراء : ٤٥

[5] النمل : ٥٦

[6] القلم : ٩ وانظر : تفسير القرآن بكلام الرحمن ص :٦٠٧

وافق الشيخ ثناء الله الهندي الشيخ الشنقيطي رحمهما الله تعالى في تفسير آية فصلت ، حيث استشهد بآية سورة المطففين التي بينت أن الطبع على قلوب الكفار سببه كثرة ذنوبهم وما اقترفوا من الكفر والمعاصي .

فبين الله تعالى في آية المطففين سبباً لما ذكر في آية سورة فصلت ، وهو كما أشرت إليه أن الطبع سببه ما اكتسبوه من الكفر والمعاصي وهذا من أنواع بيان القرآن بالقرآن .

ثم استشهد الشيخ ثناء الله الهندي بآيتي سورة الإسراء التي قرر الله تعالى فيهما ما قاله الكفار كما أخبر عنهم بقولهم : ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾[1] .

وكذلك بيان الشيخ بآية سورة النمل من باب تفسير القرآن بالقرآن ، وهو من باب جمع الآيات التي تتحدث في موضوع واحد وذلك أن كلتا الآيتين جاءتا في بيان استهزاء الكفار بالرسل . عليهم السلام . .

وبيانه لقوله تعالى : ﴿ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾ بقوله تعالى : ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ۝٩﴾ من تفسير القرآن بالقرآن ، فالله تبارك وتعالى بين في سورة القلم أن غرضهم من مقولتهم : ﴿ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾ هو تمني المشركين وحبهم أن يداهنهم رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ويميل إلى ما قالوا فيميلوا هم أيضاً إلى قوله ودينه .[2]

فيصح تفسير آية سورة فصلت بآية سورة القلم على تفسير الشيخ ثناء الله الهندي فمن أنواع البيان التي تضمنها القرآن أن يقع طلب لأمر ، وفي موضع آخر يبين المقصود من ذلك الأمر المطلوب .

وفسر المفسرون رحمهم الله تعالى قوله تعالى :﴿ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾[3] بما يلي :

١. اعمل على دينك إننا عاملون على ديننا .[4]

٢. وقال مقاتل [1]: اعمل لإلهك الذي أرسلك ، فإنا نعمل لآلهتنا التي نعبدها .

---

[1] فصلت :٥

[2] المحرر الوجيز لابن عطية : ١٨٨٣

[3] فصلت : ٥

[4] تفسير ابن أبي زمنين ج : ٢ ص : ١٢٩

٣. قال الكلبي[٢] : اعمل في هلاكنا ، فإنا عاملون في هلاكك .

٤. وقيل : اعمل لآخرتك ، فإنا نعمل لدنيانا .[٣]

القول الراجح :

الناظر إلى هذه الأقوال يجد أنها من قبيل اختلاف التنوع وليس اختلاف التضاد ، فالمشركون أخبروا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنهم لن يتبعوا دعوته وإن استمر في الدعوة إليها واستمر بتبليغ رسالة ربه ونشر دينه .

ومن خلال الدراسة السابقة يتبين صحة تفسير قول الله تعالى :﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥﴾بقول الله تعالى :﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ فالله تعالى ذكر في هذه الآية أن معنى الوقر هو عدم السماع .

وبقول الله تعالى :﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ٤٥ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾إذا ربطناها بالآيات التي بينت سبب ما حصل بهم ، وبصحة تفسيرها أيضاً بقول الله تعالى :﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾حيث ذكر الله تعالى أن سبب ما حصل بهم هو مبادرتهم إلى المعاصي ، وبقوله تعالى :﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ٩﴾ فالله ذكر أن المقصود من مقولتهم :﴿ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥﴾ وغرضهم طلب المداهنة من الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ والعلم عند الله تعالى .

---

[١] مقاتل بن سليمان الأزدي بالولاء ، البلخي ، أبو الحسن : من أعلام المفسرين من كتبه (التفسير الكبير ونوادر التفسير) ، كان له معرفة بتفسير القرآن ولم يكن في الحديث بذاك لذا ضعفوه ، توفي سنة : (١٥٠هـ) ينظر : (الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي ج : ٣ ص : ١٣٦ والأعلام ج : ٧ ص : ٢٨١)

[٢] أبو النصر محمد بن السائب الكلبي ، نسابة، راوية، عالم بالتفسير والأخبار وأيام العرب ، قال البخاري: تركه يحيى بن سعيد وابن مهدي وضعفه ابن معين ، صنف كتابا في تفسير القرآن وتوفي بالكوفة سنة (١٤٦) ينظر : (التاريخ الكبير ج : ١ ص : ١٠١ ، وتهذيب الكمال ج : ٢٥ص : ٢٤٦ ، وتهذيب التهذيب ج : ٥ ص : ١١٦).

[٣] ينظر : تفسير العز بن عبد السلام ٥٠٢ وتفسير القرطبي ج : ١٥ ص : ٢١٨ وتفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٦١ فتح القدير ج : ٤ ص : ٦

الآية المفسرة قوله تعالى :﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ فصلت :٦

أمر الله عز وجل في هذه الآية الكريمة نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للناس ما أنا إلا بشر من بني آدم مثلكم في الجنس والصورة والهيئة لست بملك،﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ يوحي الله إلى أن لا معبود لكم تصلح عبادته إلا معبود واحد.[1]

تفسير القرآن بالقرآن :

وفيه مطلبان :

المطلب الأول :

تفسير الآية بقول الله تعالى :﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[2]

فسرها بذلك الشيخ الشنقيطي رحمه الله حيث يقول :{ أمر الله – جل وعلا – في هذه الآية الكريمة نبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يقول للناس :﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ والقصر في قوله : ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ﴾ إضافي ، أي لا أقول لكم : إني ملك ، وإنما أنا رجل من البشر .

وقوله : ﴿مِّثْلُكُمْ﴾في الصفات البشرية ، ولكن الله فضلني بما أوحى إلي من توحيده .

كما قال – تعالى – عن الرسل في سورة إبراهيم :﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي كما من علينا بالوحي والرسالة }.[3]

وجه البيان :

يخبر الله تبارك وتعالى في آية سورة إبراهيم أن الرسل عليهم السلام أخبروا قومهم أنهم بشر مثلهم ، ولكن الله تعالى يمن بفضله ويختار للرسالة من يشاء من عباده .

فكلتا الآيتين جاءتا في موضوع واحد ، فآية سورة فصلت يأمر الله تعالى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يخبر الكفار أنه بشر مثلهم ، وأن الله تعالى اجتباه ليوحي إليه رسالته ، ووافقتها آية سورة إبراهيم ببيان أن الرسل ـ عليهم السلام ـ قالوا لقومهم بما قاله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقومه .

---

[1] ينظر : جامع البيان للطبري ج : ٢١ ص: ٤٢٩ وأضواء البيان ج : ٤ ص : ٣٩٣

[2] إبراهيم : ١١

[3] أضواء البيان ج : ٤ ص : ٣٩٩

وجمع الآيات المتشابهة في الموضوع الواحد يدخل في المنهج الموسع في تفسير القرآن بالقرآن .

المطلب الثاني :

تفسير الآية بقول الله تعالى : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ ﴾[1] فسرها بذلك الشيخ ثناء الله الهندي حيث يقول عند بيانه لقول الله تعالى :﴿ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ قال : {فكيف أسكت عن تبليغ الأحكام والحال أن الله قد فرض علي تبليغها لقوله تعالى :﴿ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ ﴾ ﴿ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ ﴾[2] أقبلوا عليه بالقلب[3] لقوله تعالى :﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨ ﴾[4] }[5]

وجه البيان :

إن بيان الشيخ رحمه الله تعالى لقوله تعالى :﴿ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ بآية سورة المائدة من تفسير القرآن بالقرآن ، فبعد أن أمر الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقول للمعرضين عن رسالة ربه أنه بشرٌ مثلهم ، ولكن الله تعالى فضله بما أوحى إليه ، أمر الله تعالى نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتبليغ ما أوحي ما أنزل إليه من ربه .

فتفسير الشيخ رحمه الله تعالى من تفسير القرآن بالقرآن وهو من قبيل بيان الإجمال ، فالله تعالى أجمل في آية سورة فصلت ما يتعلق بما أوحى إلى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثم بين في آية المائدة ما يتعلق بهذا الإجمال ببيان وجوب تبليغ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما أوحى إليه ربه .

---

[1] المائدة : ٦٧

[2] فصلت : ٦

[3] الإستقامة تكون في الطريق المسلوك والنهج المتمثل وأما القلب فيوصف بالإنابة فلابد مع الإنابة بالقلب العمل بالجوارح

[4] المزمل : ٨

[5] انظر : تفسير القرآن بكلام الرحمن : ٦

وبيانه لقول الله تعالى :﴿ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ بآية سورة المزمل من تفسير القرآن بالقرآن ، وذلك ببيان كيفية الاستقامة لله تعالى ، وهي بالانقطاع التام والإقبال على الله تعالى بالعبادة له وحده لا شريك له والانقطاع من كل شيء يلهي عنه انقطاعاً تاماً.

والمفسرون بينوا أن المراد بالاستقامة هي الاستقامة إلى الله بالتوحيد والطاعة ، وتوجيه الوجوه إليه بالرغبة والعبادة وإخلاصها له دون الآلهة والأوثان [1] ، وهذا البيان يوافق آية سورة المزمل لأن المراد بالتبتل: {الانقطاع إلى عبادة الله عز وجل ، أي انقطع بعبادتك إليه ، ولا تشرك به غيره }[2].

الآية المفسرة قوله تعالى :﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٧﴾

فصلت : ٦ . ٧

[1] ينظر :تفسير الطبري ج : ٢١ ص : ٤٣٠ وتفسير السمعاني ج : ٥ ص : ٣٧ وتفسير البغوي : ١١٤٦ وتفسير الكشاف ج : ٤ ص : ١٨٦ والكشف والبيان ج : ١٢ ص : ٢٨٦ وتفسير القرطبي ج : ١٥ ص : ٢١٩ وتفسير الخازن ج : ٤ ص : ٨٣ والبحر المحيط ج : ١٢ ص : ٢٨٦ وتفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٦٤ وتفسير الجلالين ص : ٤٨٨

[2] ينظر : تفسير القرطبي ج : ١٩ ص : ٣٣

يخبر الله تبارك وتعالى بأن الويل والهلاك لمن أشرك به ، وامتنع عن أداء الزكاة فلم يدفعها لمستحقيها وقوله ولمن لم يؤمن بالبعث ، ولا بالجنة والنار [1].

تفسير القرآن بالقرآن :

اختلف المفسرون رحمهم الله تعالى في معنى الزكاة في الآية الكريمة ، فمنهم من قال أن المراد بالزكاة هي زكاة المال المعروفة ، وقال آخرون هي زكاة الأبدان بفعل الطاعات واجتناب المعاصي ، وبيان ذلك في مطلبين :

المطلب الأول :

تفسيرها بقول الله تعالى : ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾[2] وذلك على أن المراد بالزكاة في الآية هي زكاة المال .

يقول ابن كثير رحمه الله تعالى : {لا يبعد أن يكون أصل الزكاة الصدقة كان مأموراً به في ابتداء البعثة ، كقوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾[3] فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بين أمرها بالمدينة ، ويكون هذا جمعا بين القولين }[4]

وجه البيان :

يأمر الله تبارك وتعالى بأداء الزكاة المفروضة يوم يكال أو يوزن [5] ما يجب إخراج الزكاة فيه .

فبعد أن أخبر الله تعالى في آية سورة فصلت وبين أن المشركين يمتنعون عن أداء الزكاة ، بين الله تعالى في هذه الآية الكريمة متى يجب إخراج الزكاة ، هذا على أن المراد بالزكاة هي زكاة المال المعروفة ، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن ، وهو من باب بيان الإجمال .

يقول السدي[6]: ﴿ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أي: {لا يدينون بالزكاة}.

وقال معاوية بن قرة [1]: {ليس هم من أهل الزكاة}.

---

[1] ينظر : تفسير النسفي ج : ٣ ص : ٢٦٢ وتفسير السعدي ص : ٧٤٤

[2] الأنعام :١٤١

[3] الأنعام :١٤١

[4] تفسير القرآن العظيم ج : ٧ ص : ١٦٤

[5] ينظر : تفسير السعدي : ٢٧٦

[6] إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة الإمام المفسر أبو محمد الحجازي ثم الكوفي السدي ، أحد موالي قريش مات في سنة سبع وعشرين ومئة (ينظر : سير أعلام النبلاء ج : ٥ ص : ٢٦٤ . ٢٦٥)

وقال قتادة: {يمنعون زكاة أموالهم}.

وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين [٢]، واختاره ابن جرير .[٣]

يقول ابن جرير رحمه الله بعد أن ساق القولين في معنى الزكاة : {والصواب من القول في ذلك ما قاله الذين قالوا معناه: لا يؤدون زكاة أموالهم ؛ وذلك أن ذلك هو الأشهر من معنى الزكاة ، وأن في قوله :﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾ دليلا على أن ذلك كذلك، لأن الكفار الذين عنوا بهذه الآية كانوا لا يشهدون أن لا إله إلا الله ، فلو كان قوله:﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ مرادا به الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله لم يكن لقوله :﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾معنى ، لأنه معلوم أن من لا يشهد أن لا إله إلا الله لا يؤمن بالآخرة ، وفي إتباع الله قوله : ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾ قوله : ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ما ينبئ عن أن الزكاة في هذا الموضع معني بها زكاة الأموال }[٤] .

ويقول الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى : {قد استدل بعض علماء الأصول بهذه الآية الكريمة ، على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، لأنه تعالى صرح في هذه الآية الكريمة ، بأنهم مشركون ، وأنهم كافرون بالآخرة ، وقد توعدهم بالويل على شركهم وكفرهم بالآخرة ، وعدم إيتائهم الزكاة ، سواء قلنا إن الزكاة في الآية هي زكاة المال المعروفة ، أو زكاة الأبدان بفعل الطاعات واجتناب المعاصي.

---

[١]معاوية بن قرة ابن إياس بن هلال بن رئاب ، الإمام العالم الثبت أبو إياس المزني البصري والد القاضي إياس ، حدث عن والده ، وعن عبد الله بن مغفل ، وعلي بن أبي طالب إن صح إسناده، وابن عمر، ، وأبي أيوب الأنصاري ، وأبي هريرة، وابن عباس ، وغيرهم ، حدث عنه ابنه إياس، ومنصور بن زاذان ، وقتادة ، ومطر الوراق ، وثابت البناني توفي سنة : (١١٣هـ) ينظر : (سير أعلام النبلاء ج : ٥ ص : ١٥٣ . ١٥٥)

[٢] ينظر : تفسير الطبري ج : ٢١ ص : ٤٣١ وتفسير السمعاني ج : ٥ ص : ٣٧ وتفسير البغوي : ١١٤٦ وتفسير الكشاف ج : ٤ ص : ١٨٦ والكشف والبيان ج : ١٢ ص : ٢٨٦ وتفسير الرازي ج : ٢٧ ص : ٥٤٢ وتفسير القرطبي ج : ١٥ ص : ٢١٩ وتفسير الخازن ج : ٤ ص : ٨٣ والبحر المحيط ج : ١٢ ص : ٢٨٦ وتفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٦٤ وفتح القدير ج :٤ ص : ٧ ومحاسن التأويل للقاسمي ج : ١٤ ص : ٢٥٦ والتحرير والتنوير ج : ٢٥ ص : ١٤ . ١٥ والتفسير الوسيط لسيد طنطاوي ج : ١٢ ص : ٢٣٧ وتفسير الزحيلي ج : ٢٤ ص : ١٨٧ والتفسير الواضح ج : ٣ ص : ٣٢٦ وتفسير المراغي ج : ٢٤ ص : ١٠٧

[٣] انظر : تفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٦٤

[٤] انظر :جامع البيان ج : ٢١ ص :٤٣١

ورجح بعضهم القول الأخير لأن سورة فصلت هذه ، من القرآن النازل بمكة قبل الهجرة، وزكاة المال المعروفة إنما فرضت بعد الهجرة سنة اثنتين، كما قدمناه في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾[1]

وعلى كل حال ، فالآية تدل على خطاب الكفار بفروع الإسلام .

أعني امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة ، من كونهم مخاطبين بذلك وأنهم يعذبون على الكفر ، ويعذبون على المعاصي ، جاء موضحا في آيات أخر كقوله تعالى عنهم مقررا له: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ }[2]

ويقول الدكتور يوسف القرضاوي في كتاب فقه الزكاة تحت عنوان : الزكاة في العهد المكي زكاة مطلقة :

{ولكن المعروف في تاريخ التشريع الإسلامي ، أن الزكاة فرضت في المدينة ، فكيف يتفق هذا وذكر القرآن لها في آيات كثيرة من السور المكية ؟

والجواب : أن الزكاة التي ذكرت في القرآن المكي ، لم تكن هي بعينها الزكاة التي شرعت بالمدينة ، وحددت نصبها ومقاديرها ، وأرسل السعاة لجبايتها وصرفها ، وأصبحت الدولة مسؤولة عن تنظيمها .

الزكاة في مكة زكاة كانت زكاة مطلقة من القيود والحدود ، وكانت موكولة إلى إيمان الأفراد وأريحيتهم وشعورهم بواجب الأخوة نحو إخوانهم من المؤمنين .

فقد يكفي ذلك القليل من المال ، وقد تقتضي الحاجة بذل الكثير أو الأكثر .

ومما يؤيد اختيار الطبري اقتران الزكاة بالإيتاء ، والإيتاء هو : الإعطاء ، وأولى شيء بذلك هو زكاة المال }[3] .

---

[1] الأنعام : ١٤١

[2] المدثر : ٤٢ . ٤٧ وانظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٣٩٣ . ٣٩٤

[3] انظر : فقه الزكاة د. يوسف القرضاوي ج : ١ ص : ٦٠

وآيات سورة المدثر جاءت مقررةً لآية سورة فصلت وفيها دلالة على أن المراد بالزكاة هي زكاة المال ، حيث أخبر الله تعالى وبين الأسباب التي أدخلتهم النار وهي ترك الصلاة وعدم إطعام المسكين والكلام في الباطل والتكذيب بيوم القيامة .

المطلب الثاني :

تفسيرها بقول الله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾[١] وذلك على أن المراد بالزكاة هي زكاة النفس بفعل الطاعات واجتناب النواهي .

يقول ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير الآية : { قال علي بن أبي طلحة[٢] عن ابن عباس في تفسير قول الله تعالى :﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي :{الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله. وكذا قال عكرمة .

وهذا كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾[٣] ، وكقوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾[٤] وقوله ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨﴾[٥] والمراد بالزكاة هاهنا : طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة ، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك }[٦] .

وجه البيان :

إن هذه الآيات التي ذكرها ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير الآية لم يتبين لي فيها دليلاً على أن المراد بالزكاة في آية فصلت هي تطهيرها من الشرك والمعاصي ، والظاهر والله تعالى أعلم أنه أوردها لبيان المعنى الجامع في إطلاق الزكاة على طهارة النفس من الشرك والمعاصي ، ومعنى هذه الآيات هو الفلاح لمن طهَّر نفسه ونمَّاها بالخير ، وقد خسر من أخفى نفسه في المعاصي.[٧]

---

[١] الشمس : ٩ . ١٠

[٢] علي بن أبي طلحة سالم مولى بني العباس سكن حمص أرسل عن ابن عباس ولم يره صدوق قد يخطئ مات سنة : (٤٣هـ) انظر : تقريب التهذيب ص : ٦٩٨

[٣] الشمس : ٩ . ١٠

[٤] الأعلى : ١٤ . ١٥

[٥] النازعات : ١٨

[٦] انظر : تفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٦٤

[٧] ينظر : تفسير السعدي ص : ٩٢٦

خلاصة الدراسة :

مما ذكرته صحة تفسير قول الله تعالى :﴿ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٧﴾ بآية سورة الأنعام على أن المراد بالزكاة هي زكاة المال المعروفة ، وكذلك صحة تفسير ها بآيات سورة المدثر والعلم عند الله تعالى .

الآية المفسرة قوله تعالى :﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٨﴾ فصلت : ٨

يخبر الله تعالى أن من ءامن بالله وبرسوله . صلى الله عليه وسلم . ، وعمل بما أمره الله به ورسوله . عليه الصلاة والسلام . ، وانتهى عما نهي عنه ، وعمل الصالح من الأعمال لهم أجر

غير مقطوع ، بل هو مستمر مدى الأوقات ، متزايد على الساعات ، مشتمل على جميع اللذات والمشتهيات.[1]

تفسير القرآن بالقرآن :

فسرت هذه الآية بقول الله تعالى في سورة هود :﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾[2] وقوله تعالى في سورة الكهف : ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾[3] . ﴿٣﴾﴾[3].

يقول ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره لقوله تعالى :﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾[4] قال مجاهد وغيره: {لا مقطوع ولا مجبوب[5] ، كقوله: ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ ، ، وكقوله تعالى :﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾}[6]

وجه البيان :

إن تفسير ابن كثير رحمه الله تعالى لآية سورة فصلت بآيتي هود والكهف تفسير صحيح وهو من تفسير القرآن بالقرآن ، وذلك أن الله تبارك وتعالى ذكر ألفاظاً أخر لمعنى﴿ مَمْنُونٍ ﴾ في قوله تعالى : ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ ببيان أن أصحاب الجنة العطاء غير مقطوع عنهم ، وأنهم يبقون في الجنة مخلدين أبدا ، لا يحولون عنها ، ولا يزولون .[7]

فمن أنواع البيان التي تضمنها القرآن الكريم ، تفسير اللفظ بلفظ آخر أوضح عند السامع ، فالله تعالى بين في آيتي هود والكهف أن المراد بقوله : ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾[8] أي : ﴿ غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾[9] وأن أصحاب الجنة ﴿ مَّٰكِثِينَ ﴾[10] في الجنة .

---

[1] ينظر : جامع البيان للطبري ج : ٢١ ص : ٤٢٩ وتفسير السعدي : ٧٤٥

[2] هود : ١٠٨

[3] الكهف : ٣

[4] فصلت : ٨

[5] الجَبُّ: القَطْعُ انظر : (الصحاح ج : ١ ص : ٧٨ وتاج العروس من جواهر القاموس ج : ٢ ص : ١١٧)

[6] انظر : تفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٦٤ وأشار إلى آية سورة هود الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى في تفسيره .

[7] ينظر : تفسير القرآن العظيم ج : ٥ ص : ١٣٥

[8] فصلت : ٨

[9] هود : ١٠٨

[10] الكهف : ٣

الأقوال الأخرى في معنى قوله تعالى : ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

اختلف المفسرون رحمهم الله تعالى في معنى قوله تعالى :﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ على أقوال :

القول الأول : أن معنى ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي : {غير مقطوع} قاله ابن عباس . رضي الله عنهما . وعليه أكثر المفسرين رحمهم الله تعالى [1].

القول الثاني : أن المعنى : {لا يمن عليهم به لأنه إنما يمنّ بالتفضل ، فأما الأجر فحق أداؤه} اختاره ابن عطية [2].

القول الثالث : أن المعنى : {غير منقوص} قاله ابن عباس ومقاتل[3] واختاره ابن جرير [4].

[4].

القول الرابع : أي {غير محسوب} قاله مجاهد .[5]

القول الراجح :

الذي يظهر والله أعلم أن معنى قوله تعالى :﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي : غير مقطوع ، وذلك لأنه من تفسير القرآن بالقرآن ، وكلمة ﴿مَمْنُونٍ﴾معناها في اللغة : {القطع من قولهم مننت الحبل أي قطعته والمن : القطع} [6]، فدلالة القرآن واللغة يرجحان القول الأول ، وبذلك يتبين صحة تفسير الآية بآيتي هود والكهف .

---

[1] انظر : جامع البيان ج : ٢١ ص :٤٣١ . ٤٣٢ ومعالم التنزيل :١١٤٦ . ١١٤٧ ومفاتيح الغيب ج : ٢٧ ص :٥٤٣ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج : ١٥ ص : ٢١٩ . ٢٢٠ والبحر المحيط ج : ٩ ص : ٢٨٧ وفتح القدير ج :٤ ص :٧ وروح المعاني ج :١٣ ص : ١٥١ . ١٥٣

[2] انظر : المحرر الوجيز : ١٦٤٧

[3] انظر : تفسير مقاتل ج : ٣ ص : ١٦١

[4] انظر : جامع البيان ج : ٢١ ص :٤٣١ . ٤٣٢

[5] انظر : جامع البيان ج : ٢١ ص :٤٣١ . ٤٣٢ ومعالم التنزيل : ١١٤٦ . ١١٤٧ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج : ١٥ ص : ٢١٩ . ٢٢٠ وفتح القدير ج :٤ ص :٧

[6] انظر : إعراب القرآن للنحاس ج : ٤ ص :٣٥ ومختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي : ٣٢٨

فتفسير قوله تعالى :﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي : غير مقطوع هو الذي عليه جمهور المفسرين ، خلافاً لمن قال أن معنى :﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي : غير ممنون عليهم به ، أو غير منقوص أو غير محسوب.[1]

الآية المفسرة قوله تعالى :﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾﴾ فصلت : ٩

[1] ينظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٣٩٤ . ٣٩٥

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله إلهاً غيره، وهو الخالق لكل شيء ، القاهر لكل شيء ، المقدر لكل شيء ، فجعلوا لله نظراء وأمثالا يعبدونها معه وهو الخالق لجميع الأشياء هو رب العالمين كلهم.[1]

تفسير القرآن بالقرآن :

فسرت هذه الآية بقول الله تعالى :﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾[2]

يقول ابن كثير رحمه الله تعالى : {فذكر أنه خلق الأرض أولا لأنها كالأساس ، والأصل أن يُبْدَأَ بالأساس ، ثم بعده بالسقف ، كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ }[3]

وجه البيان :

ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى هذه الآية دليلاً على أن خلق الأرض كان قبل خلق السماء لأنها كالأساس ، والأصل أن يبدأ بالأساس ثم بعده بالسقف ، ويؤيد هذا لفظة ﴿ثُمَّ﴾ التي هي للترتيب والانفصال مع التراخي.[4]

وهذا المعنى مذكور في آيات سورة فصلت والتي تدل على أن خلق الأرض قبل خلق السماء ، قال الله تعالى :﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾[5].

فبيان الآية بآية سورة البقرة بيان صحيح وهو من تفسير القرآن بالقرآن ، وهو من باب جمع الآيات المتشابهة في المعنى أو الموضوع .

وورد في سورة النازعات ما يدل على أن دحو الأرض كان بعد خلق السماء ، قال تعالى :

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾[6]

---

[1] انظر : تفسير القرآن العظيم ج : ٧ ص : ١٦٥

[2] البقرة :٢٩

[3] انظر : تفسير القرآن العظيم ج : ٧ ص : ١٦٥

[4] انظر : تفسير القرآن العظيم ج : ٧ ص : ١٦٥وأضواء البيان ج:٤ ص :٣٩٦

[5] فصلت : ٩ . ١١

[6] النازعات : ٢٧ . ٣٠

وعندما سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الجمع بين آية فصلت وآية النازعات فيما ذكره البخاري عند تفسيره هذه الآية فأجاب ((وخلق الأرض في يومين ، ثم خلق السماء ، ثم استوى إلى السماء ، فسواهن في يومين آخرين ، ثم دحى الأرض ، ودحوها: أن أخرج منها الماء والمرعى ، وخلق الجبال والجماد والآكام وما بينهما في يومين آخرين ، فذلك قوله: ﴿ دَحَىٰهَآ ﴾ وقوله : ﴿ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ ﴾ فَخُلِقت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام ، وخلقت السماوات في يومين)).[1]

فقد أجاب ابن عباس رضي الله عنهما بأن خلق الأرض قبل خلق السماء ، والمقصود بدحو الأرض هو إخراج الماء منها وإرساء الجبال وإنبات الأشجار ونحو ذلك .

يقول الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى :{ وهذا الجمع الذي جمع به ابن عباس هاتين الآيتين واضح لا إشكال فيه مفهوم من القرآن العظيم ، إلا أنه يرد إشكال من آية البقرة هذه .

وإيضاحه أن ابن عباس جمع بأن خلق الأرض قبل خلق السماء ودحوها بما فيها بعد خلق السماء .

وفي هذه الآية التصريح بأن جميع ما في الأرض مخلوق قبل خلق السماء لأنه قال فيها: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ ﴾[2]

قال رحمه الله : وقد مكثت زمنا طويلا أفكر في حل هذا الإشكال حتى هدانا الله إليه ذات يوم ففهمته من القران العظيم.

وإيضاحه: أن هذا الإشكال مرفوع من وجهين كل منهما تدل عليه آية من القرآن :

الأول: أن المراد بخلق ما في الأرض جميعا قبل خلق السماء هو الخلق اللغوي الذي هو التقدير لا الخلق بالفعل الذي هو الإبراز من العدم إلى الوجود والدليل على أن المراد بهذا الخلق التقدير أنه تعالى نص على ذلك في سورة فصلت حيث قال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ ثم قال: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ .

الثاني: أنه لما خلق الأرض غير مدحوة وهي أصل لكل ما فيها كان كل ما فيها كأنه خلق بالفعل لوجود أصله فعلا والدليل من القرآن على أن وجود الأصل يمكن به اطلاق الخلق

---

[1] رواه البخاري ج: ٨ ص : ٤٢٧ . ٤٢٨ برقم : ٤٨١٥

[2] البقرة : ٢٩

على الفرع وان لم يكن موجوداً بالفعل قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾[1] فقوله ﴿خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾أي بخلقنا وتصويرنا لأبيكم آدم الذي هو أصلكم.

وجمع بعض العلماء بأن معنى قوله ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾[2] أي مع ذلك ، فلفظة بعد بمعنى مع }[3].

فدفع بهذا الكلام ما يتوهم تعارضه واختلافه ، فقد دلت آية البقرة وآيات سورة فصلت على أن خلق الأرض قبل خلق السماء وآيات سورة النازعات تبين أن دحو الأرض بإخراج الماء منها وإرساء الجبال وإنبات الأشجار ونحو ذلك .

وهذا من تفسير القرآن بالقرآن ، فمن أنواع البيان الذي تضمنه الجمع بين ما يتوهم أنه مختلف .

الآية المفسرة قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ فصلت :١٠

يخبر الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة أنه جعل في الأرض رواسي أي جبالاً ثوابت ترسو بالأرض حتى لا تميد بأهلها ولا تميل فيخرب كل شيء عليها وترسيها عن الزوال والتزلزل وعدم الاستقرار [4].

---

[1] الأعراف : ١١

[2] النازعات :٣٠

[3] ينظر :أضواء البيان ج : ٤ ص : ٣٩٦ . ٣٩٧

[4] ينظر : جامع البيان ج : ٢١ ص: ٤٣٤ وتفسير السعدي : ٧٤٥

تفسير القرآن بالقرآن :

أحال الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى تفسير هذه الآية الكريمة إلى قول الله تعالى في سورة النحل :﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[1] ، وعند الرجوع إلى تفسيره للآية بين أن الله تعالى ذكر عدداً من النعم التي أنعمها الله تعالى على عباده في هذه الآية ومنها إلقاؤه الجبال في الأرض لتثبت ولا تتحرك ، وكرر الامتنان بهذه النعمة في القرآن ، ثم ذكر عدداً من الآيات التي تدل على هذا المعنى كقوله تعالى :﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾[2]

ثم قال رحمه الله : {وفي معنى قوله ﴿أَن﴾ وجهان معروفان للعلماء :

أحدهما :كراهية أن تميد بكم .

والثاني : لئلا تميد بكم ، قال : وهما متقاربان }.[3]

وجه البيان :

يبين الله تبارك وتعالى من خلال آيتي النحل ولقمان نعمةً أنعمها على عباده وحكمةً من حكم خلق الجبال ، وذلك بأن جعل الجبال على هذه الأرض لأن لا تميد وتتحرك بالناس ، والعلماء رحمهم الله تعالى بينوا من خلال كتبهم وتفاسيرهم أن من الحكم الإلهية لخلق الجبال فوق الأرض ، لكي لا تضطرب الأرض بالناس وهذا من رحمة الله تعالى بعباده .

ويقول الأستاذ الدكتور محمد الطيب في إعراب قوله تعالى :﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ قال : {والمصدر المؤول :﴿أَن تَمِيدَ﴾في محل نصب مفعول لأجله على حذف مضاف أي : مخافة أن تميد }.[4]

فتفسير آية سورة فصلت بآية سورة النحل وآية سورة لقمان هو من تفسير القرآن بالقرآن ، فمن أنواع البيان التي تضمنه هذا الكتاب المبارك أن يذكر أمراً في موضع ، وفي موضع آخر يذكر الله تعالى ما يتعلق بهذا الأمر بذكر سبب له ، أو أن يكون الله خلق شيئاً و يذكر الحكمة من خلق هذا الشيء في موضع آخر.

---

[1] النحل :١٥ وانظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٣٩٥

[2] لقمان : ١٠

[3] ينظر : أضواء البيان ج :٢ ص : ١٣٧

[4] انظر : إعراب القرآن الكريم : ٢٦٩

الآية المفسرة قوله تعالى :﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظًا﴾ فصلت :١٢

يخبر الله تبارك وتعالى بأنه زين السماء الدنيا بمصابيح وهي الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض﴿ وَحِفۡظًا﴾ أي حرساً من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى .[١]

تفسير القرآن بالقرآن :

فسرت هذه الآية بقول الله تعالى :﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾[٢] ، حيث أحال الشيخ الشنقيطي رحمه الله تفسير الآية إلى آية سورة الأنعام [١] ، وعند الرجوع

[١] انظر :تفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٦٥

[٢] الأنعام : ٩٧

إلى تفسيره لآية سورة الأنعام قال رحمه الله : { ظاهر هذه الآية الكريمة أن حكمة خلق النجوم هي الاهتداء بها فقط ، كقوله : ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾[٢]، ولكنه تعالى بين في غير هذا الموضع أن لها حكمتين أخريين غير الاهتداء بها ؛ وهما تزيين السماء الدنيا ، ورجم الشياطين بها }، ثم ذكر عدداً من الآيات التي تدل على ذلك منها آية سورة فصلت [٣]

وجه البيان :

بين الله تبارك وتعالى في آية فصلت حكمتين من خلق النجوم ، وبين في آية سورة الأنعام حكمةً أخرى من الحكم التي خلقت من أجلها النجوم ، وذلك ليهتدي بها الناس في الأوقات التي يغشى فيها الأرض الظلام ، وليعرفوا الاتجاهات ، حينما تكون الشمس غائبة [٤].

يقول ابن عاشور رحمه الله تعالى في تفسير آية سورة الأنعام : {وقوله : ﴿لِّتَهۡتَدُواْ بِهَا﴾ علة ثانية ل ﴿جَعَلَ﴾ فاللام للعلة أيضاً }[٥].

فتفسير آية فصلت بآية سورة الأنعام من تفسير القرآن بالقرآن ، فكما ذكرت أن الله تبارك وتعالى بين في آية سورة الأنعام من الحكم الإلهية لخلق النجوم ، وهذا من أنواع البيان للقرآن بالقرآن .

---

[١] ينظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٣٩٧

[٢] النحل : ١٦

[٣] ينظر : أضواء البيان ج : ١ ص : ٣٦٥

[٤] ينظر جامع البيان ج : ١١ ص : ٥٦١

[٥] التحرير والتنوير ج : ٦ ص : ٢٣٤

الآية المفسرة قوله تعالى :﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ١٤﴾ فصلت :١٤

يخبر الله تبارك وتعالى عن المشركين بأنهم قالوا لرسلهم إذ دعوهم إلى الإقرار بتوحيد الله : لو شاء ربنا أن نوحده ، ولا نعبد من دونه شيئا غيره ، لأنزل إلينا ملائكة من السماء رسلا بما تدعوننا أنتم إليه ، ولم يرسلكم وأنتم بشر مثلنا ، ولكنه رضي عبادتنا ما نعبد ، فلذلك لم يرسل إلينا بالنهي عن ذلك ملائكة .

وقوله :﴿ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ يقول: قالوا لرسلهم : فإنا بالذي أرسلكم به ربكم إلينا جاحدون غير مصدّقين به [1] .

تفسير القرآن بالقرآن :

[1] انظر : جامع البيان للطبري ج : ٢١ ص : ٤٤٣

أحال الشيخ الشنقيطي رحمه الله تفسير آية سورة فصلت وبيانها إلى قوله تعالى : ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾[1].

وعند الرجوع لكلام الشيخ رحمه الله تعالى نجد أنه قال : { ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن كفار قريش عجبوا من أجل أن جاءهم رسول منذر منهم ، وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، من عجبهم المذكور ، ذكره في غير هذا الموضع وأنكره عليهم وأوضح تعالى سببه ورده عليهم في آيات أخر ، فقال في عجبهم المذكور : ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾[2].

وقال تعالى في إنكاره عليهم في أول سورة يونس ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾[3] }[4]

وجه البيان :

أخبر الله تبارك وتعالى عن الكفار بأنهم عجبوا أن الله تعالى أرسل إليهم بشر مثلهم ، وأخبر الله عنهم في آية سورة فصلت بأنهم قالوا لو أن الله أراد أن يرسل إليهم رسولاً لكان من الملائكة ، فهم رفضوا الإيمان ، وذلك لأن الذي جاء ينذرهم بشرٌ مثلهم .

وفي آية سورة ص وق ويونس يبين الله تعالى أن كفار قريش عجبوا من أجل أن جاءهم رسول منذر منهم ، زاعمين أن الله لا يرسل إليهم أحداً من جنسهم .[5]

---

[1] ص : ٤ وانظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٣٩٧

[2] ق : ١ ـ ٢

[3] يونس : ١ ـ ٢

[4] انظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٣٤٩

[5] ينظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٣٤٩

فعند دراسة هذه الآيات نجد أنها جاءت في موضوعٍ واحدٍ ، وهو إنكار المشركين أن يبعث الله رسولاً إليهم وهو بشرٌ مثلهم ، وجمع الآيات التي تتحدث في الموضوع الواحد يدخل في المصطلح الموسع لتفسير القرآن بالقرآن والعلم عند الله تعالى .

الآية المفسرة قوله تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ فصلت :١٦

يخبر الله تعالى أنه أرسل على قوم عاد بمجرد أن تأكد كفرهم بجحودهم بآيات الله أرسل الله تعالى عليهم ريحاً صرصراً أي باردة ذات صوت مزعج ، دامت سبع ليال وثمانية أيام فلم تبق منهم أحداً ، وهي أيام نحسات عليهم مشئومات وأنها كانت متتابعات .[1]

تفسير القرآن بالقرآن :

[1] ينظر : تفسير القرآن العظيم ج : ٤ ص : ١١٥

فسرت هذه الآية بقول الله تعالى :﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [1] ، وأشار إلى هذه الآيات ابن كثير والشنقيطي رحمهما الله تعالى .

يقول ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى :﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ { قال بعضهم : وهي شديدة الهبوب ، وقيل الباردة ، وقيل هي التي لها صوت .

والحق أنها متصفة بجميع ذلك فإنها كانت ريحاً شديدة قوية ، لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم ، وكانت باردة شديدة البرد جداً كقوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ أي باردة شديدة وكانت ذات صوت مزعج، ومنه سمي النهر المشهور ببلاد المشرق صرصراً لقوة صوت جريه.

وقوله تعالى:﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ أي متتابعات ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ وكقوله:﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾[2] أي ابتدؤا العذاب في يوم نحس عليهم واستمر بهم هذا النحس ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ حتى أبادهم عن آخرهم واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة }[3]

وأشار الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى إلى ما أشار إليه ابن كثير رحمه الله بأن الريح متصفة بأنها ريح عاصفة شديدة الهبوب ، التي يسمع لهبوبها صوت شديد ، وأنها باردة شديدة البرد [4].

وجه البيان :

يبين الله تبارك وتعالى في هذه الآيات ما أجمل في آية فصلت ، فذكر وصفاً لهذه الريح ، وعدد الأيام والليالي التي أرسل عليهم الريح فيها ، وبيان حال القوم بعد ما أرسلت عليهم .

فقوله سبحانه وتعالى في سورة الحاقة:﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[1] ذكر وصفاً لهذه الريح ، فقوله سبحانه : ﴿صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ صفتان لريح [2] ، ومعنى قوله : ﴿عَاتِيَةٍ﴾ أي :{ من العتو بمعنى الشدة والقوة وتجاوز الحد }[3]

---

[1] الحاقة : ٦ . ٨

[2] القمر : ١٩

[3] انظر : تفسير القرآن العظيم ج : ٤ ص : ١١٥

[4] ينظر : أضواء البيان ج :٤ ص : ٣٩٧ . ٣٩٨

وبين الله تبارك وتعالى أيضاً في هذه الآيات عدد الأيام والليالي التي أرسلت عليهم الريح فيها بقوله سبحانه :﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾[٤]

ومعنى قوله ﴿حُسُومًا﴾ {نحسات حسمت كل خير واستأصلت كل بركة ، أو متتابعة هبوب الرياح ماخفتت ساعة حتى أتت عليهم ، تمثيلاً لتتابعها بتتابع فعل الحاسم في إعادة الكي على الداء ، مرة بعد أخرى حتى ينحسم }[٥].

فالله تبارك وتعالى بين في سورة الحاقة أن هلاكهم كان في سبع ليال وثمانية أيام ، فذكر في هذه الآية متعلقاً بما أجمل في سورة فصلت بتحديد عدد الأيام والليالي التي أرسلت عليهم الريح فيها .

وقوله سبحانه وتعالى :﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[٦] يبين الله تبارك وتعالى حال القوم بعد ما أرسلت عليهم الريح ببيان أنهم صاروا هلكى موتى كأنهم جذوع النخل التي قد قطعت رؤوسها الخاوية الساقط بعضها على بعض .[٧]

فتفسير آية سورة فصلت بآيات سورة الحاقة تفسير صحيح ، وهو من تفسير القرآن بالقرآن ، وهو من قبيل بيان الإجمال والعلم عند الله تعالى .

---

[١] الحاقة : ٦

[٢] انظر : إعراب القرآن وبيانه ج : ١٠ ص : ١٩٠

[٣] انظر : التفسير الوسيط ج : ١٥ ص :٧٠

[٤] الحاقة : ٧

[٥] انظر : الكشاف ج : ٤ ص :٦٠٢

[٦] الحاقة : ٧

[٧] ينظر : تفسير السعدي : ٨٨٢

الآية المفسرة قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ فصلت : ١٧

يخبر الله تعالى عن ثمود أن الله تعالى بين لهم سبيل الخير والشر على لسان ـ صالح عليهم السلام ـ فكذبوه واختاروا الكفر على الإيمان .[1]

تفسير القرآن بالقرآن :

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : بيان أن المراد بالهدى في الآية (هدى الدلالة والإرشاد) :

[1] ينظر : جامع البيان للطبري ج : ٢١ ص : ٤٤٨

يقول الشيخ الشنقطي رحمه الله تعالى : { قوله تعالى في هذه الآية الكريمة :﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ المراد بالهدى فيه هدى الدلالة والبيان والإرشاد ، لا هدى التوفيق والاصطفاء .

والدليل على ذلك قوله تعالى بعده :﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ ، لأنها لو كانت هداية توفيق لما انتقل صاحبها عن الهدى إلى العمى }[1].

وجه البيان :

إن بيان الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى واستشهاده بقوله تعالى :﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾دليلاً على أن المراد بالهدى هدى البيان والإرشاد ، من تفسير القرآن بالقرآن ، فالمفسرون رحمهم الله تعالى بينوا أن الراد بالهدى في آية سورة فصلت ، هدى البيان والإرشاد كما ذكر الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى .

ومن أنواع البيان التي تضمنه الكتاب المبارك أن يكون التفسير بالسياق كما أشار إلى ذلك الدكتور :أحمد البريدي .[2]

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة والسدي وابن زيد[3] في معنى قوله تعالى : ﴿ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي : {بينا لهم سبيل الخير والشر ، أعلمناهم الهدى والضلالة، ونهيناهم أن يتبعوا الضلالة، وأمرناهم أن يتبعوا الهدى }[4].

يقول الألوسي بعدما ذكر تفسير ابن عباس وقتادة والسدي على أن المراد بالهدى : {هدى البيان قال : وهو أنسب بقوله تعالى :﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾.

ثم قال : وفسر غير واحد الهداية هنا بالدلالة أي : فدللناهم على الحق بنصب الحجج وإرسال الرسل فاختاروا الضلال }[5]

المطلب الثاني : تفسير الآية بقوله تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾[6]

---

[1] ينظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٣٩٩

[2] تفسير القرآن بالقرآن دراسة تأصيلية ص :٥٠ قال : الوجه الثامن عشر : التفسير بالسياق .

[3] عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، تقدمت ترجمته ص : ٥١

[4] انظر : جامع البيان للطبري ج : ٢١ ص : ٤٤٨

[5] ينظر : روح المعاني ج : ١٣ ص : ١٧٤

[6] التوبة : ٢٣

يقول الشيخ الشنقيطي رحمه الله :{ وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة :﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ أي اختاروا الكفر على الإيمان ، وآثروه عليه وتعوضوه منه.

وهذا المعنى الذي ذكرنا يوضحه قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ ﴾[1] فقوله في آية التوبة هذه :﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ موافق في المعنى لقوله : ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾}[2].

وجه البيان :

أبهم الله تبارك وتعالى المراد بالعمى والهدى في آية سورة فصلت ، ثم بين سبحانه في آية سورة التوبة أن المراد بالعمى الكفر ، والمراد بالهدى الإيمان ، وذكر ذلك عدد من المفسرين عند تفسيرهم لآية سورة فصلت [3].

فتفسير الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى آية فصلت بآية التوبة تفسير صحيح ، وهو من تفسير القرآن بالقرآن ، فمن أنواع البيان التي تضمنه الكتاب المبارك بيان الإجمال الواقع بسبب الإبهام .

---

[1] التوبة : ٢٣

[2] انظر : أضواء البيان ج :٤ ص : ٣٩٩ . ٤٠٠

[3] انظر : الوجيز للواحدي : ٩٥٣ و الجامع لأحكام القرآن ج :٨ ص:٢٢٤ وتفسير النسفي ج :٤ ص : ٨٧ ١١وتفسير الخازن ج :٦ ص : ١٠٨وفتح القدير ج :٤ ص :١١ والتفسير الوسيط ج :١٢ ص :٣٤٠

الآية المفسرة قوله تعالى : ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ فصلت : ١٧

يبين الله تعالى في الآية الكريمة أنه أرسل على ثمود صيحةً ورجفةً وذلاً ، بسبب كسبهم في اختيارهم البقاء على الضلال بإعراضهم عن دعوة رسولهم وعن دلالة آياته .[1]

تفسير القرآن بالقرآن :

أورد الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى عند تفسيره لهذه الآية عدة آيات عبر الله فيها عن هلاك قوم صالح ـ عليه السلام ـ .

[1] ينظر : التحرير والتنوير ج : ٢٥ ص : ٤٥

فقد أورد الآيات التي جاءت بعبارات مختلفة والتي عبرت عن هلاكهم ، ومن هذه العبارات القرآنية :

- الصاعقة كما في آية سورة فصلت السابقة .
- الصيحة كقوله تعالى : ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ٣١﴾ [1]
- الرجفة كقوله تعالى :﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٧٨﴾ [2]
- التدمير كقوله تعالى :﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥١﴾ [3]
- الطاغية كقوله تعالى : ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ٥﴾ [4]
- الدمدمة كقوله تعالى : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ١٤﴾ [5]
- العذاب كقوله تعالى :﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ١٥٧﴾ ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ [6]

يقول الشيخ الشنقيطي رحمه الله : {ومعنى هذه العبارات كلها راجع إلى شيء واحد ، وهو أن الله أرسل عليهم صيحة أهلكتهم ، والصيحة الصوت المزعج المهلك .

والصاعقة تطلق أيضا على الصوت المزعج المهلك ، وعلى النار المحرقة ، وعليهما معاً ، ولشدة عظم الصيحة وهولها من فوقهم رجفت بهم الأرض من تحتهم ، أي تحركت حركة قوية ، فاجتمع فيها أنها صيحة وصاعقة ورجفة ، وكون ذلك تدميرا واضح . وقيل لها طاغية ؛ لأنها واقعة مجاوزة للحد في القوة وشدة الإهلاك }[7]

وجه البيان :

---

[1] القمر : ٣١

[2] الأعراف : ٧٧ . ٧٨

[3] النمل : ٥١

[4] الحاقة : ٥

[5] الشمس :١٤

[6] الشعراء : ١٥٧ . ١٥٨

[7] ينظر : أضواء البيان ج : ٤ ، ص : ٤٠١

أورد الشيخ رحمه الله هذه الآيات والتي أخبر الله تعالى فيها أنه أرسل على ثمود صيحة أهلكتهم ، فالله تعالى ذكر إهلاك ثمود بعدة عبارات ، فتارةً يعبر عن هلاكهم بالصاعقة وتارةً بالصيحة وأخرى يعبر عنه بالعذاب وهكذا ، وكما ذكر الشيخ رحمه الله جميع هذه العبارات ترجع إلى شيءٍ واحدٍ وهو أن الله تعالى أرسل عليهم صيحةً أهلكتهم ، والظاهر أن الشيخ أورد هذه الآيات ولعل مراده : الجمع بين ما يوهم أنه مختلف وثبت أن ذلك من تفسير القرآن بالقرآن .

الآية المفسرة قوله تعالى : ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ فصلت :١٨

يخبر الله تعالى في الآية الكريمة أنه نجى من ءامن من المؤمنين من بين أظهر المشركين ، لم يمسهم سوء ولا نالهم من ذلك ضرر ، بل نجاهم الله تعالى . [1]

تفسير القرآن بالقرآن :

[1] ينظر : تفسير القرآن العظيم ج : ٧ ص : ١٧٠

فسرت هذه الآية بقول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ﴾[1]

أشار إلى آية سورة هود الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى ، وبين أن المراد بقوله :﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في آية سورة فصلت هو صالح ومن ءامن معه من قومه .

يقول الشنقيطي رحمه الله في بيانه للآية :{ ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه أهلك ثمود بالصاعقة ، ونجى من ذلك إهلاك الذين ءامنوا وكانوا يتقون الله ، والمراد بهم صالح ومن ءامن معه من قومه ، وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء مبينا في غير هذا الموضع ثم ذكر آيتي سورة هود} [2].

وجه البيان :

إن بيان الشيخ رحمه الله تعالى بأن المراد بالذين ءامنوا في آية سورة فصلت هم قوم صالح عليه السلام بيان صحيح ، ولكن يدخل فيه أيضاً قوم هود ، فالسياق في الآيات السابقة من قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾[3] تتكلم عن كلا القومين ، فيتعين بذلك أن المراد بـ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هم قوم هود وقوم صالح .

يقول ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسيره للآية :{ ونجينا الذين ءامنوا من العذاب الذي أخذهم بكفرهم بالله ، الذين وحدوا الله وصدقوا رسله }[4] .

فابن جريرٍ رحمه الله تعالى لم يخصص قوله تعالى :﴿ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقوم صالح ، ولكن أطلق المعنى فيتعين بذلك دخول قوم هود .

ويقول ابن عاشور في تفسير الآية : {الأظهر أنه عطف على التفصيل في قوله :﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا﴾ [5] وما عطف عليه من قوله : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾[6]لأن موقع هذه الجملة المتضمنة إنجاء المؤمنين من العذاب بعد أن ذكر عذاب عاد وعذاب ثمود يشير إلى أن المعنى

---

[1] هود :٦٦ . ٦٧

[2] انظر : أضواء البيان ج : ٤ ص :٤٠٢

[3] فصلت : ١٣

[4] انظر : جامع البيان ج :٢١ ص :٤٥٠

[5] فصلت : ١٥

[6] فصلت : ١٧

إنجاء الذين ءامنوا من قوم عاد وقوم ثمود ، فمضمون هذه الجملة فيه معنى استثناء من عموم أمتي عاد وثمود فيكون لها حكم الاستثناء الوارد بعد جمل متعاقبة أنه يعود إلى جميعها فإن جملتي التفصيل هما المقصود ، قال تعالى : ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾[1] وقال :﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦﴾ }[2] .

فابن عاشور رحمه الله تعالى أشار بقوله السابق أن المراد هو إنجاء الذين ءامنوا من قوم هودٍ وقوم صالحٍ ـ عليهما السلام ـ .

فالله تبارك وتعالى أبهم في آية سورة فصلت المراد بقوله :﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ، وبين في آيتي سورة هود بأن المراد بهم هو هود وصالح ـ عليهما السلام ـ ومن ءامن معهما .

فعلى هذا يصح تفسير آية سورة فصلت بآيتي سورة هود ، فمن أنواع البيان التي تضمنه الكتاب المبارك بيان الإجمال الواقع بسبب الإبهام .

الآية المفسرة قوله تعالى : ﴿ وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٩﴾ فصلت :١٩

يخبر الله تعالى بما سيحل بالمشركين في الآخرة ، حيث أخبر الله تعالى أنهم يحشرون إلى النار ، فتجمعهم الزبانية أولهم على آخرهم .[3]

تفسير القرآن بالقرآن :

وفيه ثلاث مطالب :

المطلب الأول :

---

[1] هود : ٥٨

[2] هود : ٦٦ وانظر التحرير والتنوير ج : ٢٥ ص : ٣٤ . ٣٥

[3] ينظر : تفسير القرآن العظيم ج : ٧ ص : ١٧٠ التحرير والتنوير ج : ٢٥ ص :٣٥

تفسيرها بقوله تعالى :﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ٩٨﴾[1] .

فقد فسر الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى آية سورة فصلت بآية سورة البقرة ، قال رحمه الله تعالى : {وما دلت عليه هذه الآية من أن لله أعداء ، وأنهم يحشرون يوم القيامة إلى النار ، جاء مذكورا في آيات أخر.

فبين في بعضها أن له أعداء وأن أعداءه هم أعداء المؤمنين وأن جزاءهم النار ، ثم ذكر آية سورة البقرة }[2].

وجه البيان :

أخبر الله سبحانه وتعالى في آية سورة فصلت أن المشركين أعداءٌ له عز وجل ، ، ثم بين في آية سورة البقرة أن أعداءه هم أعداء المؤمنين ، فعداوة جبريل عداوة لله ، وأن عداوة محمد . صلى الله عليه وسلم . عداوة لله – أيضاً – فالإيمان بالله وملائكته ورسله وحدة لا تتجزأ فمن كفر بواحد منهم فهو كافر بالجميع .[3]

فبيان الآية بآية سورة البقرة بيان صحيح وهو من تفسير القرآن بالقرآن ، وهو من قبيل بيان الموجز بالمفصل .

المطلب الثاني :

فسر ابن كثير رحمه الله تعالى هذه الآية بقوله تعالى في سورة مريم :﴿وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدًا ٨٦﴾[4] يقول رحمه الله تعالى : {أي اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار يوزعون أي تجمع الزبانية أولهم على آخرهم كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدًا ٨٦﴾ أي عطاشاً }[5].

---

[1] البقرة : ٩٨

[2] انظر : أضواء البيان ج : ٤ ص :٤٠٣

[3] ينظر : التفسير الوسيط ج : ١ ص :٢٢٠

[4] مريم : ٨٦

[5] انظر : تفسير القرآن العظيم ج : ٧ ص : ١٧٠

وجه البيان :

يبين الله تعالى في الآية الكريمة حال المشركين عند ما يحشرون إلى النار ، فبعد أن بين الله تعالى في آية سورة فصلت أن الزبانية تجمعهم أولهم على آخرهم ، بين في آية سورة مريم حالهم عند هذا الجمع ، حيث أخبر الله تبارك وتعالى بأنهم يكونون في ذلك الموقف عطاشاً .

فبيان ابن كثير رحمه الله للآية بآية سورة مريم بيان صحيح ، وهو من تفسير القرآن بالقرآن ، وهو من قبيل بيان الإجمال .

المطلب الثالث :

فسر الشيخ ثناء الله الهندي آية سورة فصلت بقوله تعالى :﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾[1] حيث يقول رحمه الله :﴿ وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٩﴾[2] قال : {يساقون لقوله تعالى :﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ }[3].

وجه البيان :

يبين الله تعالى من خلال آية سورة الزمر أن الكفار يساقون إلى النار سوقاً عنيفاً[4] ، فبعد أن أخبر في آية قلت أنهم يحشرون إلى النار ، بين حالهم عند ما يحشرون إليها بأنهم يساقون إلى النار سوقاً عنيفاً .

فالله تعالى بين في سورة الزمر حالةً للكفار عند ما يساقون إلى النار كما ذكر حالةً من أحوالهم في سورة مريم ، فبيان الشيخ للآية وتفسيره لها بآية سورة الزمر تفسير صحيح وهو من تفسير القرآن بالقرآن .

وبذلك يتبين صحة تفسير قول الله تعالى :﴿ وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٩﴾ بآيات سور البقرة ومريم والزمر والعلم عند الله تعالى .

---

[1] الزمر : ٧١

[2] فصلت : ١٩

[3] انظر : تفسير القرآن بكلام الرحمن : ٦٠٩

[4] ينظر : معالم التنزيل : ١١٥٠ وتفسير الخازن ج : ٦ ص : ١٠٩

الآية المفسرة قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠﴾

﴿فصلت : ٢٠

يخبر الله تعالى عن حال المشركين عند ما يؤتى بهم إلى النار يوم القيامة تشهد عليهم سمعهم بما كانوا يصغون به في الدنيا إليه ويسمعون له ، وأبصارهم بما كانوا ينظرون إليه في الدنيا ،

وجلودهم أيضاً تشهد عليهم ، فيشهد عليهم كل عضو من أعضائهم بما كانوا يعملون ، وخص هذه الأعضاء الثلاثة ، لأن أكثر الذنوب إنما تقع بها أو بسببها.[1]

تفسير القرآن بالقرآن [2]:

فسرت هذه الآية بقول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾[3]

يقول الشيخ ثناء الله الهندي : { ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ ما زائدة ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾خلافنا ﴿قَالُوٓا۟﴾ معتذرين لهم﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ المكالمة حقيقية لقوله تعالى :﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ لكن كيف هي ؟ العلم عند الله ﴿وَهُوَ﴾الذي ﴿خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾أيها الناس جميعاً}[4]

وجه البيان :

عند التمعن والنظر في آية سورة يس نجد أن الله تبارك وتعالى بين كيفية حصول تلك الشهادة من الجوارح على الإنسان يوم القيامة.

فالله تبارك وتعالى بين في الآية الكريمة أن شهادة الجوارح يوم القيامة على الإنسان عما عمله وما اكتسبه في الحياة الدنيا ، تكون عند ما يختم على الأفواه فتتكلم الجوارح حينئذ .

وفي الحديث عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال : كنا عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم ـ فضحك فقال « هل تدرون مم أضحك ». قال قلنا الله ورسوله أعلم ، قال : « من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم قال : يقول بلى ، قال فيقول فإني لا أجيز على نفسِي إلا شاهدًا منى قال فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا وبالكرام

---

[1] ينظر : جامع البيان ج : ٢١ ص : ٤٥١ وتفسير السعدي :٧٤٧

[2] ذكرت في الخطة إلى أن الآية المفسّرة قول الله تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء:٤٢]لإحالة الشيخ الشنقيطي رحمه الله لها انظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٤٠٣ ، وبالرجوع إلى كلامه للآية فسّر الشيخ الآية بآية سورة يس انظر : أضواء البيان ج : ١ ص : ٢٠٢

[3] يس : ٦٥

[4] انظر : تفسير القرآن بكلام الرحمن : ٦٠٩

الكاتبين شهودًا – قال – فيختم على فيه فيقال لأركانه انطقي. قال فتنطق بأعماله – قال – ثم يخلى بينه وبين الكلام – قال : فيقول بعدًا لكن وسحقًا. فعنكن كنت أناضل ».[1]

فالآية فيها تأكيد ودلالة لما ذكره الله تعالى في سورة فصلت وهو تكلم الأعضاء يوم القيامة وشهادتها على ابن آدم . عليه السلام . على عمله الذي كان يعمله في الدنيا .

فتفسير آية سورة فصلت بآية سورة يس تفسير صحيح وهو من تفسير القرآن بالقرآن ، وهو أن يذكر أمر في موضع وفي موضع آخر يذكر كيفية وقوعه .

الآية المفسرة قوله تعالى : ﴿وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ فصلت : ٢٢ . ٢٤

يقول جل ثناؤه للمشركين : ولكن حسبتم حين ركبتم في الدنيا من معاصي الله أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون من أعمالكم الخبيثة ، وهذا الظن الذي ظننتموه بالله تعالى أهلككم فأصبحتم يوم القيامة من الخاسرين ، فإن يصبروا على العذاب ويكظما آلامهم ، فالنار هي مأواهم ومستقرهم الدائم لا يخرجون منها أبداً عياذاً بالله تعالى .[2]

تفسير القرآن بالقرآن :

---

[1] رواه مسلم ج : ٨ ص : ٢١٦ برقم : ٧٦٢٩

[2] ينظر : جامع البيان ج : ٢١ ص : ٤٤٥ والتفسير المنير للزحيلي ج : ٢٤ ص : ٢٠٩

أحال الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى تفسير الآية إلى قول الله تعالى :﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾[1] وعند الرجوع إلى كلامه إلى آية سورة ص قال رحمه الله : {وقوله تعالى في هذه الآية : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ يدل على أن من ظن بالله ما لا يليق به جل وعلا ، فله النار .

وقد بين تعالى في موضع آخر أن من ظن بالله ما لا يليق به أرداه وجعله من الخاسرين ، وجعل النار مثواه . وذلك في قوله تعالى :﴿وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ }[2]

وجه البيان :

يبين الله تعالى في آية سورة ص أنه من ظن بالله تعالى ما لا يليق به جل وعلا فله النار ، فالكفار ظنوا أن الله تعالى لم يخلق السماء والأرض وما بينهما لحكمة مقصودة ، والحكمة أنها خلقت دليلاً على وحدانية الله تعالى ، ثم توعدهم الله عز وجل بالنار التي سيعذبون فيها جزاءً على كفرهم وظنهم السيئ بالله تبارك وتعالى .[3]

وآيات سورة فصلت يبين الله تعالى كذلك أنه من ظن بالله ما لا يليق به أرداه وجعله من الخاسرين والنار مثواه عياذاً بالله تعالى ، فالله جل و علا بين أن الكفار عند ما ارتكبوا المعاصي ظنوا أن الله تعالى لا يعلم كثيراً من أعمالهم التي عصوا الله بها ، فأخبروا أن ظنهم السيئ بالله تعالى أهلكهم وأوردهم النار وجعلهم من الخاسرين .[4]

ومن خلال كلام الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى يتبين أن آية سورة فصلت هي المفسِّرة لآية سورة ص ، فالله تعالى أخبر في الآيتين أنه من ظن بالله ما لا يليق به جعل النار مثواه ، وزاد البيان في آية سورة فصلت بأنه من كان حاله كذلك وظن بالله تعالى ما لا يليق به أرداه وجعله من الخاسرين ، وبهذا تكون آية سورة فصلت هي المفسِّرة لآية سورة ص والعلم عند الله تعالى .

---

[1] ص :٢٧ انظر : أضواء البيان ج : ٤ ص :٤٠٣ . ٤٠٤

[2] انظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٣٥٣

[3] ينظر : أضواء البيان ج : ٤ ص :٣٥٣

[4] ينظر :أضواء البيان ج : ٤ ص : ٣٥٣

الآية المفسرة قوله تعالى :﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ فصلت : ٢٤

يخبر الله تعالى عن الكفار أنهم إن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذارا فما لهم أعذار ، ولا تقال لهم عثرات ، فلا يجاب طلبهم ولا يخفف عنهم العذاب .[1]

تفسير القرآن بالقرآن :

فسرت الآية الكريمة بعدة آيات من كتاب الله تعالى ، وبيان ذلك كالآتي :

المطلب الأول :

[1] انظر : تفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٧٣

أحال الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى تفسير الآية إلى قول الله تعالى :﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [1].

يقول الشيخ رحمه الله تعالى : { لم يبين تعالى في هذه الآية الكريمة متعلق الإذن في قوله :﴿ لَا يُؤْذَنُ ﴾ولكن بينه في المرسلات أن متعلق الإذن الإعتذار أي : لا يؤذن لهم في الاعتذار ، لأنهم ليس لهم عذر يصح قبوله ، وذلك في قوله :﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [2] }[3] .

وجه البيان :

فالله تبارك وتعالى بين أن الكفار وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا معاذيرهم فلن يقبل ذلك منهم ، ولا تقال عثراتهم ، ولا يؤذن لهم بالاعتذار ليعتذروا ، لأنهم لا عذر لهم فقد قامت عليهم الحجة ، ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون [4].

فالله تبارك وتعالى ذكر في آية المرسلات متعلقاً لآيتي سورة النحل وفصلت ، وهو أن الكفار يوم القيامة لا يؤذن لهم بالاعتذار فيعتذروا ، فيصح تفسير الآيتين بآية المرسلات ، فمن أنواع البيان التي تضمنه القرآن الكريم ، أن يذكر الله تعالى أمراً في موضع وفي موضع يذكر أمراً يتعلق به .

ثم شرع الشيخ رحمه الله تعالى في بيان قوله تعالى :﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[5] حيث قال : { اعلم أولاً أن استعتب تستعمل في اللغة بمعنى طلب العتبى ؛ أي : الرجوع إلى ما يرضي العاتب ويسره . وتستعمل أيضا في اللغة بمعنى أعتب : إذا أعطى العتبى ، أي : رجع إلى ما يحب العاتب ويرضى ، فإذا علمت ذلك فاعلم أن في قوله :﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ وجهين من التفسير متقاربي المعنى .

---

[1] النحل : ٨٤ وانظر أضواء البيان ج :٤ ص : ٤٠٤

[2] المرسلات : ٣٥ . ٣٦

[3] انظر : أضواء البيان ج : ٢ ص : ١٧٧

[4] ينظر : تفسير ابن كثير ج : ٨ ص : ٣٠٠

[5] النحل : ٨٤

قال بعض أهل العلم :﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ، أي : لا تطلب منهم العتبى ، بمعنى لا يكلفون أن يرضوا ربهم ؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف ، فلا يردون إلى الدنيا ليتوبوا.

وقال بعض العلماء : ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ، أي : يعتبون ، بمعنى يزال عنهم العتب ، ويعطون العتبى وهي الرضا ؛ لأن الله لا يرضى عن القوم الكافرين . وهذا المعنى كقوله تعالى في قراءة الجمهور :﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [1] ، أي : وإن يطلبوا العتبى – وهي الرضا عنهم لشدة جزعهم – فما هم من المعتبين ؛ بصيغة اسم المفعول ، أي : المعطين العتبى وهي الرضا عنهم .[2]

فالشيخ رحمه الله تعالى استشهد بآية سورة فصلت لبيان آية سورة النحل فعلى هذا تكون آية فصلت هي المبيِّنة والمفسِّرة لآية سورة النحل ، ببيان أن الكفار لا يطلب منهم أن يرضوا الله تعالى ، وذلك لأن الآخرة ليست بدار تكليف ولن يرجعوا للدنيا مرةً أخرى ليتوبوا بل الآخرة هي دار الجزاء والحساب ، أو أن هؤلاء الكفار إن طلبوا رضا الله تعالى

فلن يرضى الله تعالى عنهم .

ثم قال رحمه الله : { وأما على قراءة من قرأ :﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ ، بالبناء للمفعول (بضم الياء وكسر التاء الثانية) ،﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ بصيغة اسم الفاعل (بكسر التاء) [3]، فالمعنى : أنهم لو طلبت منهم العتبى وردوا إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله وطاعة رسله ، ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي : الراجعين إلى ما يرضي ربهم ، بل يرجعون إلى كفرهم الذي كانوا عليه أولا ، وهذه القراءة كقوله تعالى : ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ }[4].

وفسر آية سورة فصلت بآية سورة الأنعام عدد من المفسرين رحمهم الله تعالى .[5]

وجه البيان :

---

[1] فصلت : ٢٤

[2] انظر : أضواء البيان ج : ٢ ص : ١٧٨

[3] قراءة الحسن وعمرو بن عبيد وموسى الأسواري وهي قراءة شاذة ، انظر المحتسب ج : ٢ ص : ٢٤٥

[4] الأنعام : ٢٨ وانظر أضواء البيان ج : ٢ ص : ١٧٨

[5] انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج : ١٥ ص :٢٢٧ وفتح القدير ج : ٤ ص :١٣ وروح المعاني ج : ١٣ ص : ١٨٢ وتفسير السعدي : ٧٤٧

أخبر الله تعالى أن الكفار إن يسترضوا ويطلبوا العتبى فما هم مرضين ، وذلك لأنهم لو ردوا إلى الدنيا لعادوا إلى مثل العمل الذي كانوا يعملونه في الدنيا قبل ذلك ، من جحود آيات الله والكفر به والعمل بما يسخط عليهم ربهم ، وهم كاذبون في دعواهم بأنهم لو رجعوا لم يكذبوا بآيات الله وءامنوا بها .[1]

فبيان الآية الكريمة بآية سورة الأنعام بيان صحيح و هو من تفسير القرآن بالقرآن فمن أنواع البيان التي تضمنه الكتاب المبارك أن يذكر أمر في موضع وفي موضع آخر يذكر سبباً له .

المطلب الثاني :

فسر ابن جرير الآية الكريمة بقول الله تعالى : ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾[2].

يقول ابن جرير : {فإن يصبر هؤلاء الذين يحشرون إلى النار على النار ، فالنار مسكن لهم ومنزل ، يقول : وإن يسألوا العتبى ، وهي الرجعة لهم إلى الذي يحبون بتخفيف العذاب عنهم ، يقول : فليسوا بالقوم الذين يرجع بهم إلى الجنة ، فيخفف عنهم ما هم فيه من العذاب ، وذلك كقوله جل ثناؤه مخبراً عنهم : ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ }[3].

وجه البيان :

أخبر الله تعالى في آية سورة فصلت أن الكفار ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾[4] ، وبين في آيات سورة المؤمنون أن المراد : هو تمنيهم الخروج من النار والرجوع إلى الدنيا ، فهم أقروا بذنوبهم ، واعترفوا بشقاوتهم وضلالهم ، فيجيبهم الله تبارك وتعالى : امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾أي : لا تعودوا إلى سؤالكم هذا ، فإنه لا جواب لكم عندي ، والمقصود تأييسهم من النجاة مما هم فيه[5].

---

[1] ينظر : ، جامع البيان ج : ١١ ص : ٣٢٢ ومعالم التنزيل للبغوي ص : ١١٥٠

[2] المؤمنون : ١٠٦ . ١٠٨

[3] انظر : جامع البيان ج :٢١ ص : ٤٥٨

[4] فصلت : ٢٤

[5] ينظر : تفسير ابن كثير ج : ٥ ص :٤٩٨ والتحرير والتنوير ج : ١٨ ص : ١٠٤

فبيان الآية بآيات سورة المؤمنون بيان صحيح وهو من تفسير القرآن بالقرآن ، وهو من قبيل بيان معنى آية بآيةٍ أخرى والعلم عند الله تعالى .

المطلب الثالث :

بيان الآية بقول الله تعالى :﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٦﴾[1]

فسر الشيخ ثناء الله الهندي آية سورة فصلت بهذه الآية الكريمة حيث قال في بيان قوله تعالى : ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ٢٤﴾[2] قال : {همزة الإفعال للسلب أي من المسلوبين العتاب ثم ذكر الآية الكريمة} .[3]

ويقول الرازي :{ أي لم يعطوا العتبى ولم يجابوا إليها }، ونظيره قوله تعالى :﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ٢١﴾ [4].

وجه البيان :

يخبر الله تعالى عن حال الكفار يوم القيامة سواء عليهم أصبروا أم لم يصبروا هم في النار، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها ، بسبب أعمالهم الخبيثة وكسبهم ، فلا ينفعهم طلبهم ، ولا ينفعهم صبرهم ولا جزعهم ، فليس لهم مهرب من النار وليس لهم منجى.[5]

فالله تبارك وتعالى ذكر في الآيات الكريمات متعلقاً بآية سورة فصلت يبين أن الكفار عندما يعترفون بذنوبهم ، يطلبون الرجوع إلى الدنيا ليتوبوا ويعملوا صالحاً ، فيجابون بأن طلبهم غير مجاب ، وأن صبرهم وعدمه على النار سواء فمستو عليهم الجزع والصبر .

وبذلك يتبين صحة تفسير قول الله تعالى :﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ٢٤﴾ [6] بآيات سور الأنعام والمؤمنين والطور وإبراهيم عليه السلام ، حيث أخبر الله تعالى سبباً يتعلق بآية سورة فصلت ، وذكر في سور المؤمنون وإبراهيم والطور متعلقاً بآية سورة فصلت ، وهذان النوعان من أنوع بيان القرآن بالقرآن والعلم عند الله تعالى .

---

[1] الطور : ١٦

[2] فصلت : ٢٤

[3] انظر : تفسير القرآن بكلام الرحمن : ٦٠٩

[4] إبراهيم : ٢١ انظر : مفاتيح الغيب ج : ٢٧ ص : ٥٥٧

[5] ينظر : تفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٧٣ وتفسير السعدي :٨١٤

[6] فصلت :٢٤

الآية المفسرة قوله تعالى :﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾فصلت : ٢٥

يخبر الله تبارك وتعالى في الآية الكريمة أنه هيأ وسلط على الكافرين نظراء وقرناء[١] من الشياطين أضلوهم وزينوا لهم المعاصي وأمور الدنيا حتى آثروها على الآخرة ، ودعاهم ذلك إلى التكذيب بيوم القيامة وإنكار البعث .[٢]

تفسير القرآن بالقرآن :

---

[١] قرناء : جمع قرين وهو الصاحب والخليل انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج : ٣ ص : ١٣٧ . ١٣٨ وفتح القدير ج : ١ ص : ٤٢٠

[٢] ينظر : معالم التنزيل : ١١٥٠ وأضواء البيان ج : ٤ ص : ٤٠٤

وفيه مطلبان :

المطلب الأول :

تفسير الآية الكريمة بقول الله تعالى :﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾[1]

يقول ابن كثير رحمه الله تعلى : {يذكر تعالى أنه هو الذي أضل المشركين، وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته، وهو الحكيم في أفعاله، بما قَيَّض لهم من القرناء من شياطين الإنس والجن : ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: حَسَّنوا لهم أعمالهم في الماضي ، وبالنسبة إلى المستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ }[2]

وأشار إلى هذه الآية الكريمة عدد من المفسرين [3]

وجه البيان :

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى في آية سورة فصلت بأنه سلط وهيأ على الكافرين قرناء يزينون لهم الكفر والمعاصي ، بين في آية سورة الزخرف سبب تقييضهم لهم فقال سبحانه :﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ .

فالله تعالى أخبر في الآية الكريمة أن جزاء من يعرض عن ذكر الرحمن وهو القرآن فلم يخف عقابه ولم يهتد بهدايته يجعل له شيطاناً في الدنيا يغويه جزاءً على إعراضه عن ذكر الله ، وهذا الشيطان ملازم ومصاحب يمنعه الحلال ، ويبعثه على الحرام [4].

{ فترتيبه قوله :﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ على قوله :﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ترتيب الجزاء على الشرط يدل على أن سبب تقييضه له ، هو غفلته عن ذكر الرحمن }[5]

---

[1] الزخرف : ٣٦ . ٣٨

[2] انظر : تفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٧٤

[3] انظر : الكشاف ج : ٤ ص :١٩٦ وتفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٧٤ وأضواء البيان ج : ٤ ص : ٤٠٤ وتفسير السعدي : ٧٤٨ والتحرير والتنوير ج :٢٥ ص : ٤٣ والتفسير الحديث ج :٤ ص : ٤١٤

[4] ينظر : جامع البيان ج : ٢١ ص : ٦٠٥

[5] انظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٤٠٤

وفي قول الله تعالى :﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ذكر الله تبارك وتعالى متعلقاً بآية سورة فصلت ببيان أن الكفار مع إضلال الشياطين لهم والتحسين لكل المعاصي حتى انغمسوا في كل إثم وولعوا في كل باطل وشر ، وضلوا عن سبيل الهدى والرشد لهم يحسبون أنهم مهتدون ، فقوله تعالى : ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي : ويحسب المصدودون عن السبيل أنفسهم مهتدين.[1]

وذكر الله تبارك وتعالى أيضاً أن الكافر يوم القيامة يتمنى أن يكون بينه وبين قرينه من الشياطين بعد عظيم كما بين المشرق والمغرب قال الله تعالى :﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾[2] فإذا جاء الكافر يوم القيامة ورأى عاقبة غفلته وتعاميه عن القرآن ندم وتمنى هذا التمني وقال مقولته هذه .

فتفسير الآية الكريمة بآيات سورة الزخرف تفسير صحيح وهو من تفسير القرآن بالقرآن ، فالله عز وجل ذكر في هذه الآيات سبب تقييض الشياطين على الكافرين ، وهو إعراضهم عن ذكر الله تعالى ، وذكر أيضاً متعلقاً لآية سورة فصلت ببيان أن الكافر يحسب نفسه في هذه الدنيا على هدىً وغيره على ضلالة ، وأنه يوم القيامة يتمنى أن يكون بينه وبين قرينه كما بين المشرق والمغرب .

المطلب الثاني :

بيان الآية بقول الله تعالى :﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾[3] أشار إلى هذه الآية الشيخ السعدي رحمه الله تعالى [4].

يقول السعدي رحمه الله :

---

[1] ينظر : التحرير والتنوير ج : ٢٥ ص : ٢٥٣

[2] الزخرف : ٣٨

[3] مريم : ٨٣

[4] انظر : تفسير السعدي :٧٤٧ وانظر : تفسير القرآن بكلام الرحمن : ٦٠٩ فقد أشار إلى هذه الآية الشيخ ثناء الله الهندي رحمه الله تعالى .

{أي: وقضينا لهؤلاء الظالمين الجاحدين للحق ﴿قُرَنَآءَ﴾ من الشياطين، كما قال تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ أي تزعجهم إلى المعاصي وتحثهم عليها }[1].

وجه البيان :

وذلك لبيان أن المراد بالقرناء في آية فصلت هم الشياطين ، فالله تعالى بعد أن أبهم في آية فصلت المراد بالقرناء وبين في آية سورة مريم أنهم هم الشياطين ، فتفسير الآية بآية سورة فصلت تفسير صحيح وهو من تفسير القرآن بالقرآن وهو من قبيل بيان الإجمال بسبب الإبهام الواقع في قوله :﴿قُرَنَآءَ﴾ .

وبذلك يتبين صحة تفسير قول الله تعالى :﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾[2] بآيات سورة الزخرف وآية سورة مريم ، فقد ذكر الله تعالى في آيات سورة الزخرف سبب تسليط وتقييض الشياطين على الكافرين ، وذكر متعلقاً بآية فصلت ببيان أن الكفار مع إضلال الشياطين لهم يحسبون أنهم مهتدون ، وأن الكافر يوم القيامة يتمنى أن يكون بينه وبين قرينه كما بين المشرق والمغرب ، وبين في آية سورة مريم أن المراد بالقرناء هم الشياطين والله أعلم .

الآية المفسرة قوله تعالى :﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾فصلت : ٢٥

يخبر الله تبارك وتعالى بأنه وجب على الكفار ونزل القضاء والقدر بعذابهم ، كما حق على أمم مضت من قبلهم ممن فعل كفعلهم من الجن والإنس [3].

تفسير القرآن بالقرآن :

---

[1] تفسير السعدي :٧٤٧

[2] فصلت : ٢٥

[3] ينظر : التسهيل لعلوم التنزيل : ١٩١٥ وتفسير القرآن العظيم ج : ٧ ص : ١٧٤وتفسير السعدي : ٧٤٨

أحال الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى تفسير هذه الآية إلى قوله تعالى :﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [1]، وعند الرجوع إلى كلامه رحمه الله تعالى لبيان الآية قال رحمه الله تعالى : {الظاهر أن القول في قوله :﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ ﴾ وفي قوله تعالى :﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ﴾ [2] (وذكر رحمه الله آيات أخرى ورد فيها كلمة "القول" وكلمة "الكلمة" كما في قوله تعالى :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [3] قال : أن المراد بالقول والكلمة أو الكلمات بصيغة الجمع هو قوله تعالى : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [4] كما دلت على ذلك آيات من كتاب الله ، كقوله تعالى في آخر سورة هود :﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ } [5].

وأشار الشوكاني[6] والألوسي وابن عاشور رحمهم الله تعالى عند تفسيرهم للآية الكريمة إلى قوله تعالى : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [7] وهي من الآيات التي أشار إليها الشيخ الشنقيطي رحمه الله عند بيانه للآية .[1]

---

[1] يس : ٧ وانظر : أضواء البيان ج : ٤ ص :٤٠٥

[2] فصلت : ٢٥

[3] يونس : ٩٦ . ٩٧

[4] هود : ١١٩

[5] هود : ١١٨ . ١١٩ وانظر : أضواء البيان ج : ٤ ص :٣١٧ . ٣١٨

[6] محمد بن علي بن محمد الشوكاني الصنعاني ، الحافظ ، المفسر ، الأصولي ، ولد سنة : (١١٧٣هـ)تصدر للإفتاء في العشرين من عمره وولي القضاء ، من كتبه : (البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع وفتح القدير و نيل الاوطار من أسرار منتقى الأخبار) توفي سنة : (١٢٥٠هـ) ينظر : (ترجمته لنفسه في البدر الطالع ج : ٢ ص : ٢١٤ والأعلام ج : ٦ ص : ٢٩٨)

[7] ص : ٨٥

وجه البيان :

أبهم الله تبارك وتعالى ما المراد بقوله تعالى :﴿وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ ، وبين في آياتٍ من كتابه الكريم أن المراد بذلك هو ما ورد في قوله جل جلاله :﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١١٩﴾[٢] وفي قوله تعالى :﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٥﴾[٣] .

فالله تبارك وتعالى يبين في آية سورة هود أنه قد سبق في قضائه وقدره ، لعلمه التام وحكمته النافذة ، أن ممن خلقه من يستحق الجنة ، ومنهم من يستحق النار ، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس ، وله الحجة البالغة والحكمة التامة .[٤]

وأكد هذا المعنى في سورة ص بأنه لا بد أن تمتلئ جهنم من إبليس وجنوده من الشياطين ، وممن أطاعه واستجاب له من ذرية آدم . عليه السلام . عند ما كان يدعوهم ويزين لهم الضلال .[٥]

والمفسرون رحمهم الله تعالى عند تفسيرهم للآية الكريمة بينوا أن المراد بقوله تعالى :﴿وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ أي تحقق فيهم القول وهو وعيد الله إياهم بالنار على الكفر ، ووجب لهم العذاب بركوبهم ما ركبوا مما زين لهم قرناؤهم وهم من الشياطين.[٦]

فبيان الآية الكريمة بآيتي هود و ص بيان صحيح وهو من تفسير القرآن بالقرآن ، فبعد أن أبهم الله تعالى المراد بقوله تعالى :﴿وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ بين المراد بها في آيتي هود وص ، فمن أنواع البيان في الكتاب الكريم بيان الإجمال الواقع بسبب الإبهام .

---

[١] انظر : فتح القدير ج : ٤ ص : ١٤ وروح المعاني ج : ٢٤ ص : ١٨٢ والتحرير والتنوير ج : ٢٥ ص : ٤٤ وأضواء البيان ج : ٤ ص : ٣١٨

[٢] هود : ١١٨ . ١١٩

[٣] ص : ٨٥

[٤] ينظر : تفسير القرآن العظيم ج : ٤ ص : ٣٦٣

[٥] ينظر : فتح القدير ج : ٣ ص : ٥٨١

[٦] ينظر : جامع البيان ج :٢١ ص : ٤٥٩ وتفسير القرطبي ج : ١٥ ص : ٢٢٨ وتفسير البيضاوي ج : ٥ ص : ١٣ والبحر المحيط ج : ٩ ص :٣٠١ وتفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٧٤ وفتح القدير ج : ٤ ص : ١٤ وروح المعاني ج : ٢٤ ص : ١٨٢ وتفسير السعدي : ٧٤٧ والتحرير والتنوير ج : ٢٥ ص : ٤٤

الآية المفسرة قوله تعالى :﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ فصلت: ٢٦

يخبر الله تعالى حكايةً عن المشركين أنهم يقولون لمن أطاعهم من المشركين عند تلاوة القرآن : لا تسمعوا لقارئ هذا القرآن إذا قرأه ، ولا تصغوا له ، ولا تتبعوا ما فيه فتعملوا به ، وأكثروا من الكلام ليختلط عليه ما يقول ، لعل دينكم يغلب دين محمد . صلى الله عليه وسلم . .[1]

تفسير القرآن بالقرآن :

[1] ينظر : جامع البيان ج : ٢١ ص : ٤٦٠ وتفسير ابن أبي زمنين ج : ٢ ص : ١٣١

أحال الشيخ الشنقيطي رحمه الله تفسير هذه الآية إلى بيانه لقول الله تعالى :﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾[1].

عند الرجوع إلى كلام الشيخ رحمه الله عند بيانه لآية سورة البقرة نجد أنه بين أن للعلماء رحمهم الله تعالى في تفسير قول الله تعالى :﴿وَاسْمَعُوا﴾ قولان :

{أنه هو من السمع بمعنى الإجابة ، ومنه قولهم : سمعا وطاعة ؛ أي : إجابة وطاعة ، ومنه : سمع الله لمن حمده – في الصلاة – أي : أجاب دعاء من حمده ، ويشهد لهذا المعنى قوله : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[2] وهذا قول الجمهور .

وقيل : إن المراد بقوله ﴿وَاسْمَعُوا﴾ أي : بآذانكم ولا تمتنعوا من أصل الاستماع ، ويدل لهذا الوجه : أن بعض الكفار ربما امتنع من أصل الاستماع خوف أن يسمع كلام الأنبياء قال تعالى عن قوم نبينا صلى الله عليه وسلم :﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ }[3]

فالشيخ رحمه الله تعالى استشهد بآية سورة فصلت لبيان أن معنى قوله تعالى : ﴿ وَاسْمَعُوا﴾ {أي : بآذانكم ولا تمتنعوا من أصل الاستماع }، فعلى هذا تكون آية فصلت هي المبيِّنة والمفسِّرة لآية سورة البقرة والعلم عند الله تعالى .

الآية المفسرة قوله تعالى :﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾فصلت : ٣٠ . ٣٢

يخبر الله تعالى في الآيات ما أعده للذين قالوا ربنا الله تعالى وحده لا شريك له ، وأخلصوا العمل لله ثم استقاموا على شريعته ، بشرهم بأن الملائكة تتنزل عليهم عند الموت قائلين لهم: لا تخافوا من الموت وما بعده ، ولا تحزنوا على ما تخلفونه وراءكم من أمور الدنيا ، ويبشروهم بالجنة وحصول الخير ، وتقول لهم الملائكة : نحن كنا أولياءكم ، أي: قرناءكم في الحياة الدنيا، نسددكم ونوفقكم، ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم

---

[1] البقرة : ٩٣ انظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٤٠٥

[2] النور : ٥١

[3] فصلت : ٢٦ انظر : انظر أضواء البيان ج : ١ ص : ٧١ . ٧٢

الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم ، ولكم في الجنة كل ما تشتهيه أنفسكم وتقر به أعينكم ، هذا الثواب الجزيل ، والنعيم المقيم ، نزل وضيافة من غفور لذنوبكم رحيم بكم حيث وفقكم لفعل الحسنات ثم تقبلها منكم .[1]

تفسير القرآن بالقرآن :

يقول الشنقيطي رحمه الله : {ما تضمنته هذه الآية الكريمة مما أعده الله في الآخرة للذين قالوا :﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ ذكره الله تعالى في الجملة في قوله في الأحقاف : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾[2] لأن انتفاء الخوف والحزن والوعد الصادق بالخلود في الجنة المذكور في آية الأحقاف هذه يستلزم جميع ما ذكر في هذه الآية الكريمة من سورة فصلت}[3].

وجه البيان :

بين الله تبارك وتعالى في آيات سورة فصلت ما أجمل في آيتي سورة الأحقاف ، حيث أجمل في آيتي سورة الأحقاف ما أعده لمن أقر بوحدانيته ولم يشرك به شيئاً واستقام على طاعته وشريعته ، ببيان أنهم لا خوف عليهم فيما يستقبلونه من أمرهم يوم القيامة ولا يحزنون على ما خلفوه وراءهم في الدنيا ، وأنهم أصحاب الجنة يخلدون فيها أبدا ، ثوابا لهم من عند الله ، ويجزون هذا الجزاء الطيب بسب أعمالهم الصالحة ، التي كانوا يعملونها في الدنيا .[4]

وبين في آية سورة فصلت متعلقاً بآيتي سورة الأحقاف ، فقوله تعالى :﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فيها بيان بأن من يبشرهم بانتفاء الخوف والحزن هم الملائكة .

وقوله تعالى :﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ بيان بما يبشر به أهل التوحيد من الملائكة الكرام .

---

[1] ينظر : تفسير ابن كثير ج : ٧ ص :١٧٥ . ١٧٧ وتفسير السعدي : ٧٤٨

[2] الأحقاف : ١٣ . ١٤

[3] أضواء البيان ج : ٤ ص : ٤٠٦

[4] انظر : تفسير سيد طنطاوي ج : ١٣ ص : ١٨٩

فبعد أن بين الله تعالى في آيتي الأحقاف وأقر ذلك في آية سورة فصلت بأن الملائكة تبشرهم بعدم الخوف والحزن ، ذكَرَ في هاتين الآيتين الكريمتين وزاد البشارات
التي يبشرون بها ، فالملائكة تبشرهم بأنهم يكونون معهم في الحياة الدنيا يحفظونهم فيها ، ويكونون معهم في الآخرة حتى دخول الجنة ، وأن لهم في الجنة ما اشتهته أنفسهم من النعم وكل ما يتمنوه ، وهذا النزل الذي أنتم فيه من غفور رحيم .[1]

ومن هنا يتضح أن الله تبارك وتعالى ذكر في آيات سورة فصلت متعلِّقاً بآيتي سورة الأحقاف ، ببيان أن الملائكة التي تبشرهم ، وبزيادة بعض البشارات على التي وردت في سورة الأحقاف ، وبهذا يتضح أن آيات فصلت مفسِّرة لآية سورة الأحقاف والله تعالى أعلم .

الآية المفسرة قوله تعالى : ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦﴾فصلت : ٣٤ . ٣٥

يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدفع من أساء إليه بالإحسان إليه ، فإنك إذا أحسنت إلى من أساء إليك قاده ذلك الإحسان إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك ، حتى يصبح كأنه قريب منك شفيق عليك ، ثم يخبر تعالى أنه لا يوفق لهذه الخصلة الحميدة إلا من صبر نفسه على ما تكره وعلى ما يحبه الله تعالى ، ولا يوفق لها إلا ذو حظ وافر من السعادة في الدنيا والآخرة لكونها من خواص الخلق ، هذا ما يقابَل به عدو الإنس ، وأما عدو الجن

[1] ينظر : تفسير العز بن عبدالسلام : ٥٠٥وتفسير الجلالين : ٤٩١

فإنه يدفع بالاستعاذة بالله منه والاعتصام به إذا وسوس وزين للإنسان الشر ، فالله تعالى سميع لقول المتضرع إليه عليم بحاله .[1]

تفسير القران بالقران:

وفيه مطلبان :

المطلب الأول :

تفسير هذه الآيات بقول الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾[2]

يقول ابن كثير رحمه الله تعالى : {وقد قدمنا أن هذا المقام لا نظير له في القرآن إلا في "سورة الأعراف" عند قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾، وفي سورة المؤمنون عند قوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾[3] }

وجه البيان :

يبين الله تبارك وتعالى في آيات سورة فصلت وآيتي سورة الأعراف ما يقابل ويعامل به الجهلة من شياطين الإنس والجن ، فشيطان الإنس يقابل باللين والعفو عنه والإعراض عن جهله وإساءته ، وشيطان الجن لا منجى منه إلا بالاستعاذة منه ، فالله تبارك وتعالى أكد هذا المعنى في آيات السورتين ، وزاد في آية سورة فصلت بأنه لن يوفق لهذه الفعلة الكريمة والخصلة الشريفة إلا من صبر وكظم غيظه واحتمل الأذى ، ومن كان صاحب نصيب وافر من الخير وبخت كبير عند الله تعالى .

فالله تبارك وتعالى زاد في سورة فصلت أن ذلك الخير لا يعطاه كل الناس ، إنما يوفق له من كان من أهل الصبر صاحب حظ كبير عند الله تبارك وتعالى .[4]

المطلب الثاني :

---

[1] ينظر : تفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٨١ وتفسير السعدي ص : ٧٤٩-٧٥٠

[2] الأعراف : ١٩٩-٢٠٠ انظر : تفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٨١ وأضواء البيان ج : ٤ ص : ٤٠٦

[3] المؤمنون : ٩٦ . ٩٨

[4] ينظر : الجامع لأحكام القران للقرطبي ج : ١٥ ص : ٢٣٣ وأضواء البيان ج : ١ ص : ٤٣٥-٤٣٦

فسر الشيخ ثناء الله الهندي قول الله تعالى : ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦﴾[1] بقوله تعالى : ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩﴾[2]

يقول الشيخ رحمه الله : { ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ﴾أي الإغراء على الانتقام ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦﴾فتكون محفوظاً عن شره لقوله تعالى :﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩﴾ }[3]

وجه البيان :

يقول تعالى قبل هذه الآية :﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨﴾[4] ، فالله تبارك وتعالى يأمرنا في آية سورة النحل وآية سورة فصلت بالإستعاذة به من الشيطان الرجيم ، وذلك لنحفظ من شره ، فالشيطان ليس له تسلط وولاية على أولياء الله تعالى المؤمنين به والمتوكلين عليه ، فإنهم لا يطيعون أوامره ولا يقبلون وساوسه .[5]

وجملة :﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩﴾ تعليل للأمر بالاستعاذة من الشيطان ، فالاستعاذة تمنع تسلط الشيطان على المستعيذ لأن الله منعه من التسلط على الذين آمنوا المتوكلين عليه .[6]

فالله تعالى ذكر السبب الذي يجعلنا أن نستعيذ من الشيطان الرجيم وبينه في آية سورة النحل ، فيصح تفسير آية سورة فصلت بآية سورة النحل ، وهو من باب أن يذكر أمر في موضع وفي موضع آخر يذكر أمر يتعلق به كأن يذكر سبب له ، وأن قول الله تعالى : ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦﴾[7] فيها زيادة بيان على آيتي سورة الأعراف الأعراف فتكون هي المفسِّرة لآيتي الأعراف والعلم عند الله تعالى.

---

[1] فصلت : ٣٦

[2] النحل : ٩٩

[3] انظر : تفسير القرآن بكلام الرحمن : ٦١٠ . ٦١١

[4] النحل : ٩٨

[5] ينظر : تفسير البيضاوي ج : ٣ ص : ٤١٩

[6] ينظر : التحرير والتنوير ج : ١٣ ص : ٢٢٤

[7] فصلت : ٣٤- ٣٦

الآية المفسرة قوله تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ﴾ فصلت : ٣٧

يبين الله تعالى في الآية الكريمة الآيات والعلامات الدالة على خلقه ودلالته على وحدانيته ، وعظيم سلطانه ، اختلاف الليل والنهار ، وتعاقبهما، والشمس ونورها وإشراقها ، والقمر وضياؤه وتقدير منازله في فلكه ، واختلاف سيره في سمائه . [1]

تفسير القرآن بالقرآن :

وفيه مطلبان :

المطلب الأول :

بيان الآية بقول الله تعالى :﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[2]

[1] ينظر : جامع البيان ج : ٢١ ص : ٤٧٣ وتفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٨٢

[2] يوسف : ١٠٥

يقول الشيخ ثناء الله الهندي في تفسير قوله تعالى :﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ﴾ قال : {الدالة على كمال قدرته ﴿ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ بل والمخلوقات كلها ثم ذكر الآية }[1].

وجه البيان :

يبين الله عز وجل في الآية الكريمة ما أجمل في آية سورة فصلت ببيان أن كثيراً من المخلوقات وكثيراً من الآيات التي في السماوات والأرض ، جميعها دالة على قدرته ووحدانيته وأنه هو المستحق للعبادة ، فبعد أن أجمل في آية سورة فصلت وذكر بعض الآيات الدالة على كمال قدرته وهي آيات الليل والنهار والشمس والقمر ، أخبر في سورة يوسف أن الآيات والمخلوقات جميعها دالة على ذلك .

فبيان الآية بآية سورة يوسف بيان صحيح وهو من تفسير القرآن بالقرآن ، وهذا من قبيل بيان الإجمال والعلم عند الله تعالى .

وقوله تعالى :﴿وَكَأَيِّن﴾ كلمة مركبة من كاف التشبيه وأي الاستفهامية المنونة ، ثم تنوسى معنى جزئيتها وصارت كلمة واحدة بمعنى كم الخبرية المفيدة للتكثير .

والمراد بالآية هنا : العبرة والعظمة الدالة على وحدانية الله وقدرته يمر بها هؤلاء المشركون فلا يلتفتون إليها ، ولا يتفكرون فيها ، ولا يعتبرون بها ، لأن بصائرهم قد انطمست بسبب استحواذ الأهواء والشهوات والعناد عليها .[2]

يقول ابن كثير رحمه الله تعالى : {يخبر تعالى في هذه الآية عن غفلة أكثر الناس عن التفكير في آيات الله ودلائل توحيده ، بما خلقه سبحانه في السموات من كواكب زاهرات ثوابت ، وسيارات وأفلاك دائرات ، والجميع مسخرات ، وكم في الأرض من قطع متجاورات ، وحدائق وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وأمواج متلاطمات ، وقفار شاسعات ، وكم من أحياء وأموات ، وحيوان ونبات ، وثمرات متشابهة ومختلفات في الطعوم والروائح والألوان والصفات ، فسبحان الواحد الأحد ، خالق أنواع المخلوقات ، المنفرد بالدوام والبقاء والصمدية للأسماء والصفات وغير ذلك }[3].

---

[1] انظر : تفسير القرآن بكلام الرحمن : ٦١١

[2] ينظر : التفسير الوسيط ج : ٧ ص : ٤٢٢

[3] انظر : تفسير ابن كثير ج : ٤ ص : ٤١٨

المطلب الثاني :

أحال الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى تفسير الآية إلى قول الله تعالى :﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ﴾[1] فالله جل وعلا ذكر في هذه الآية الكريمة : {أنه جعل الليل والنهار آيتين ، أي علامتين دالتين على أنه الرب المستحق أن يعبد وحده ، ولا يشرك معه غيره ، وكرر تعالى هذا المعنى في مواضع كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ﴾[2] }[3]

وجه البيان :

إن الناظر في آية سورة فصلت وإلى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ يجد أن الله تبارك وتعالى أكد في كلتا الآيتين أن من الأدلة والبراهين الدالة على أنه الرب المستحق للعبادة آية الليل ، وآية النهار ، فبيان الآية لآية سورة فصلت من تفسير القرآن بالقرآن وهو من قبيل جمع الآيات المتشابهة في المعنى والعلم عند الله تعالى.

ولكن في قوله تعالى :﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ تعلق بآية سورة فصلت ، وذلك أن الله تبارك وتعالى بين لنا الحكمة من جعل الليل مظلماً والنهار مضيئاً ، فالله تبارك وتعالى جعل الليل مظلماً مناسباً للهدوء والراحة ، والنهار مضيئاً مناسباً للحركة والاشتغال بالمعاش في الدنيا ، فيسعون في معاشهم في النهار ، ويستريحون من تعب العمل بالليل ، ولو كان الزمن كله ليلا لصعب عليهم العمل في معاشهم ، ولو كان كله نهارا لأهلكهم التعب من دوام العمل ، ثم ذكرت حكمة أخرى حاصلة من كلتا الآيتين ، وهي حكمة حساب السنين ، وهي في آية الليل أظهر لأن جمهور البشر يضبط الشهور والسنين بالليالي ، أي حساب القمر ،

والحساب يشمل حساب الأيام والشهور والفصول فعطفه على ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ من عطف العام على الخاص للتعميم بعد ذكر الخاص اهتماماً به .

---

[1] الإسراء : ١٢وانظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٤٠٦

[2] فصلت : ٣٧

[3] انظر : أضواء البيان ج :٢ ص : ٢٤٣

فكما أن الليل والنهار آيتان من آياته جل وعلا ، فهما أيضا نعمتان من نعمه جل وعلا [1].

وهذا من قبيل تفسير القرآن بالقرآن ، فمن أنواع البيان التي تضمنه القرآن أن يُذكر أمر في موضع وفي موضع آخر يذكر أمر يتعلق به أو الحكمة من وجوده .

وبذلك يتبين صحة تفسير قول الله تعالى :﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ﴾[2] بآية سورة يوسف وبقول الله تعالى :﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾[3]

الآية المفسرة قوله تعالى :﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ فصلت : ٣٧

ينهى الله عباده عن الإشراك به ، فالله تعالى نهى أن يُسجد للشمس وللقمر ، وذلك أن عبادتهم مع الله تعالى لا تنفع صاحبها فالله لا يغفر أن يشرك به ، فلا ينبغي للناس أن يعبدوهما ، ولا أن يسجدوا لهما ، وإنما عليهم أن يعبدوا الله خالقهما ، الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده ولا شريك له .[4]

تفسير القرآن بالقرآن :

فسرت الآية بقول الله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾[5] يقول ثناء الله الهندي في بيان الآية :﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ {ولا لشيء من المخلوقات لقوله تعالى تعليماً لعباده :﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ

---

[1] ينظر : أضواء البيان ج : ٢ ص :٢٤٣ التحرير والتنوير ج : ١٤ ص : ٣٧

[2] فصلت : ٣٧

[3] الإسراء : ١٢

[4] ينظر : تفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٨٢

[5] الفاتحة : ٥

وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ ﴿وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ أي للخالق فإنه مستحق للعبادة لقوله تعالى : ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾ }[1].

وجه البيان :

بعد أن نهى الله تعالى عباده عن الإشراك به وذلك بنهيهم أن يسجدوا للشمس وللقمر ، وأمرهم بالسجود له وحده لا شريك له ، وجههم في آية سورة الفاتحة بصرف أنواع العبادة كلها له وحده لا شريك له ، وذلك بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ولا يستعينوا إلا به سبحانه وتعالى ، قال سبحانه : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ أي : {لا نعبد إلا إياك ، ولا نستعين إلا إياك على العبادة وغيرها ، و الاستعانة طلب العون ، والله سبحانه وتعالى يجمع بين العبادة والاستعانة ، أو التوكل في مواطن عدة في القرآن الكريم ، لأنه لا قيام بالعبادة على الوجه الأكمل إلا بمعونة الله ، والتفويض إليه ، والتوكل عليه }[2]

وفي آية سورة النحل بيان لاستحقاق الخالق جل وعلا لصرف العبادة له ، وذلك أن من خلق وأوجد جميع هذه المخلوقات ليس كمن لا يخلق شيئاً لا قليلاً ولا كثيراً ، فكما أنه لا مشارك له إذ أنشأكم ، فلا تجعلوا له أنداداً في عبادته ، بل أخلصوا له الدين .[3]

فبيان الشيخ رحمه الله تعالى للآية بآية الفاتحة والنحل بيان صحيح وهو من باب تفسير القرآن بالقرآن وهو من قبيل بيان الإجمال .

---

[1] النحل : ١٧ وانظر : تفسير القرآن بكلام الرحمن : ٦١١

[2] انظر : تفسير الشيخ محمد بن عثيمين ج : ٢ ص : ٨

[3] ينظر : تفسير السعدي : ٤٣٧

الآية المفسرة قوله تعالى : ﴿ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ ﴾ فصلت : ٣٨

يقول الله تبارك وتعالى في الآية الكريمة إن استكبر المشركين وتعظموا عن أن يسجدوا لله الذي خلقهم وخلق الشمس والقمر ، فالملائكة الذين عند ربك لا يستكبرون عن ذلك بل يديمون التسبيح لله سبحانه بالليل ، والنهار ، وهم لا يملون ، ولا يفترون .[1]

تفسير القرآن بالقرآن :

وفيه مطلبان :

المطلب الأول :

تفسير هذه الآية بقول الله تعالى : ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ ﴾[2]

يقول الشنقيطي رحمه الله تعالى :{ ﴿ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ ﴾، أي فإن تكبر الكفار عن توحيد الله والسجود له وحده ، وإخلاص العبادة له ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ وهم الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي يعبدونه وينزهونه دائما ليلاً ونهاراً ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ أي لا يملون من عبادة

---

[1] ينظر : جامع البيان ج : ٢١ ص : ٤٧٤ وفتح القدير ج : ٤ ص : ١٧

[2] الرعد : ١٣

ربهم ، لاستلذاذهم لها وحلاوتها عندهم ، مع خوفهم منه – جل وعلا – كما قال – تعالى – :﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ }[1].

وجه البيان :

بعد أن بين الله تبارك وتعالى في آية فصلت أنه إن استكبر المشركون عن عبادة الله تعالى ، وأن من عنده لا يستكبرون عن ذلك ، صرح في آية سورة الرعد وبين أن المراد بهم هم الملائكة الكرام ، وبين الله تعالى أيضاً حالهم حال التسبيح له جل وعلا ببيان خوفهم من الله تبارك وتعالى فقال سبحانه :﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ فهم ينزهون ربهم خوفا منه تبارك وتعالى .

يقول الأستاذ الدكتور محمد الطيب الإبراهيم :{﴿مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾متعلقان بيسبح أو بمحذوف حال من الملائكة أي خائفين }[2].

فالله تعالى بين في الآية الكريمة حال الملائكة عند تسبيحهم لربهم جل وعلا ، بعد أن بين في آية فصلت أنهم ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾[3] فبذلك يصح تفسير آية فصلت بآية سورة الرعد وهو من تفسير القرآن بالقرآن .

المطلب الثاني :

فسر ابن كثير رحمه الله تعالى الآية بقوله تعالى :﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾[4]

يقول رحمه الله :{ ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾أي: عن إفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره ﴿ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني: الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ كقوله :﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ }[5].

وجه البيان :

---

[1] انظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٤٠٦

[2] انظر : إعراب القرآن الكريم : ٢٥٠

[3] فصلت : ٣٨

[4] الأنعام : ٨٩

[5] الأنعام : ٨٩ وانظر : تفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٨٢

دلت آية سور فصلت أن الله – جل وعلا – إن كفر به بعض خلقه ، فإن بعضا آخر من خلقه يؤمنون به ويطيعونه كما ينبغي ، ويلازمون طاعته دائما بالليل والنهار [1]والمقصود بذلك هم الملائكة الكرام ، ثم بين في آية سورة الأنعام أن هناك خلقاً آخر من خلقه يؤمنون به لا يجحدون شيئا من نعم الله تعالى ، ولا يردون منها حرفًا واحدًا ، بل يؤمنون بجميعها محكمها ومتشابهها ، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه وإحسانه .[2]

فكما أن الملائكة الكرام يؤمنون به ويديمون التسبيح له ، فكذلك عباده وخلقه من البشر يذعنون له ويقرون بنعمه ولا يشركون به شيئاً ، فالله تعالى بين في آية الأنعام أن عباده من البشر يؤمنون به ولا يستكبرون عن عبادته فقوله سبحانه : ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾[3]

ففي الآية الكريمة تصريح بأن عباده من البشر يؤمنون به ولا يستكبرون عن عبادته كما هو حال الملائكة الكرام .

وبذلك يتبين صحة تفسير قول الله تعالى :﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾[4] بآيتي سورتي الرعد والأنعام والعلم عند الله تعالى .

---

[1] ينظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٤٠٦

[2] ينظر : تفسير ابن كثير ج : ٣ ص : ٢٩٩

[3] الأنعام : ٨٩

[4] فصلت : ٣٨

الآية المفسرة قوله تعالى :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ﴾ فصلت: ٤٠

تتحدث الآية على من يلحد في آيات الله تعالى ويميل بها عن الصواب ، فالله توعده بأنه مطلع عليه وسيجازيه على عمله ، ولهذا قال : ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي : أيستوي هذا وهذا ؟ لا يستويان ، ومن يأتي ءامناً من عذاب الله مستحقاً لثوابه خير ممن يلقى في النار .[1]

تفسير القرآن بالقرآن :

وفيه مطلبان :

المطلب الأول :

بيان الآية بقول الله تعالى :﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ ﴾[2] .

يقول الشيخ ثناء الله الهندي رحمه الله تعالى :{ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ ينكرون ويبغونها عوجاً﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ﴾ ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦﴾[3] ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ لا شك أن الثاني خير لقوله تعالى :﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ ﴾ }[4].

وجه البيان :

---

[1] ينظر : تفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٨٣ وتفسير السعدي : ٧٥٠

[2] آل عمران : ١٨٥

[3] المؤمنون : ٩٦

[4] آل عمران : ١٨٥ وانظر : تفسير القرآن بكلام الرحمن : ٦١١

عند ما جاءت آية سورة فصلت بأسلوب الإستفهام والسؤال بأنه هل من يلقى في النار بسبب تكذيبه وكفره بربه خير أمَّن سيأتي ءامناً يوم القيامة ؟ جاءت آية سورة آل عمران ببيان أنه من يزحزح عن النار ويدخل الجنة خير ممن يلقى في النار ، وذلك بأنه عندما يدخل الجنة ، فقد نجا وظفر بعظيم الكرامة .

فتفسير الآية بآية سورة آل عمران تفسير صحيح وهو من تفسير القرآن بالقرن ، وهو من باب أن يذكر أمر في موضع وفي موضع آخر يذكر أمر متعلقاً به .

المطلب الثاني :

أحال الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى تفسير الآية وبيانها إلى قوله تعالى :﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾[1]

وعند الرجوع إلى كلامه رحمه الله تعالى في بيان آية الفرقان قال : { التحقيق أن الإشارة في قوله :﴿أَذَٰلِكَ﴾ راجعة إلى النار ، وما يلقاه الكفار فيها من أنواع العذاب كما ذكره جل وعلا بقوله :﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾[2] وغير هذا من الأقوال لا يعول عليه ، كقول من قال : إن الإشارة راجعة إلى الكنز والجنة في قوله تعالى : ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ﴾[3] وكقول من قال : إنها راجعة إلى الجنات والقصور المعلقة على المشيئة في قوله تعالى :﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾[4] والتحقيق إن شاء الله أنه لما ذكر شدة عذاب النار وفظاعته قال : أذلك العذاب خير أم جنة الخلد الآية }.

ثم قال رحمه الله :{وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة ، جاء أيضا في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة الصافات :﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ

---

[1] الفرقان : ١٥ انظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٤٠٧

[2] الفرقان : ١١ . ١٤

[3] الفرقان : ٨

[4] الفرقان : ١٠

نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾[1] وكقوله تعالى :﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الآية }[2].

وجه البيان :

من خلال كلام الشيخ رحمه الله تعالى بين أن للعلماء رحمهم الله تعالى في مرجع الإشارة في قوله :﴿أَذَٰلِكَ﴾ عدة أقوال ، ورجح أن الإشارة ترجع إلى النار وما يلقاه الكافر فيها من أنواع العذاب ، ثم ذكر رحمه الله آيات سورتي الصافات وآية فصلت والتي جاءت كالمؤكدة لترجيح الشيخ رحمه الله تعالى ، وعلى هذا فإن آية سورة فصلت تكون مفسِّرةً لآية سورة الفرقان .

فيصح تفسير قول الله تعالى :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ﴾[3] بآية سورة آل عمران لأن الله تعالى ذكر في الآية متعلقاً بآية سورة فصلت والعلم عند الله تعالى .

---

[1] الصافات : ٦٠ . ٧٠

[2] فصلت : ٤٠ انظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ١٤٧ . ١٤٨

[3] فصلت : ٤٠

الآية المفسرة قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١﴾ فصلت :٤١

يقول تعالى : إن الذين جحدوا هذا القرآن المذكر للعباد جميع مصالحهم الدينية والدنيوية والأخروية ، المعلي لقدر من اتبعه[١] ، ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ نعمة من ربهم على يد أفضل الخلق وأكملهم والحال أنه كِتَابٌ جامع لأوصاف الكمال عزيزٌ بإعزاز الله إياه منيعٌ من كل من أراده بتحريف أو سوء[٢].

تفسير القرآن بالقرآن :

فسرت الآية بقوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[٣]

يقول الشيخ ثناء الله الهندي : {﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ﴾أي بالقرآن لقوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾الموصول اسم إن وأولئك ينادون الآية خبرها وما بينهما بعضها حال وبعضها اعتراض ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١﴾ }[٤]

وجه البيان :

إن تفسير الشيخ ثناء الله الهندي رحمه الله تعالى لآية سورة فصلت بآية سورة الحجر من تفسير القرآن بالقرآن ، ففي قول الله تعالى : ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ دلالة على أن المراد بالذكر القرآن ، وذلك أن الله تعالى بين ذلك بقوله سبحانه : ﴿نَزَّلۡنَا﴾ فالتعبير بهذه الكلمة وهي التنزيل فيها بيان على أن المراد بالذكر الوارد في الآيتين هو القرآن الكريم .

---

[١] خبر (إن) محذوف والتقدير : هالِكُون أو معذبون انظر : تفسير القرطبي ج : ١٥ ص : ٢٣٥

[٢] ينظر : جامع البيان ج : ٢١ ص : ٤٧٩ وتفسير السعدي : ٧٥٠

[٣] الحجر : ٩

[٤] انظر : تفسير القرآن بكلام الرحمن : ٦١١ . ٦١٢

وفي قوله تعالى : ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ زيادة بيان بأن هذا الذكر وهذا القرآن العظيم محفوظٌ من الشياطين وهو أن سبحانه حافظه في كل وقت من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل بخلاف الكتب المتقدمة فإنه لم يتول حفظها وإنما استحفظها الربانيين والأحبار فاختلفوا فيما بينهم بغياً فوقع التحريف [1]، فيصح تفسير الآية بالآية والعلم عند الله تعالى

الآية المفسرة قوله تعالى : ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ۝٤٣﴾ فصلت : ٤٣

يقول الله تعالى لنبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ما يقال له من التكذيب إلا وقد قيل للرسل من قبله ، فكما قد كُذِّبت فقد كُذِّبوا ، وكما صَبروا على أذى قومهم لهم ، فاصبر أنت على أذى قومك لك .

ثم يخبر الله تعالى بأنه غفور لمن تاب إليه وأناب ، وأنه ذو عقابٍ مؤلم لمن استمر على كفره وطغيانه وعناده وشقاقه . [2]

تفسير القرآن بالقرآن :

فسرت الآية بقوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾ [3]

روي عن قتادة رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى : ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ﴾ أنه قال : { يعزي نبيّه ـ صلى الله عليه وسَلم ـ كما تسمعون ، يقول :﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾ }[4]

وجه البيان :

لم يبين الله عز وجل في سورة فصلت ما الذي قاله المشركون للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخبره أن ما قيل له قد أوذيَ به الرسل ـ عليه السلام ـ من قبله ، ولكن بين ذلك في سورة

---

[1] ينظر : تفسير النسفي ج : ٢ ص : ١٣٤

[2] ينظر : جامع البيان ج : ٢١ ص : ٤٨١ وتفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٨٣

[3] الذاريات : ٥٢

[4] انظر : جامع البيان ج : ٢١ ص : ٤٨١

الذاريات وهو اتهامهم له بالسحر والجنون وذلك في قوله سبحانه : ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢﴾ .

فالله تعالى أخبر نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه ما أرسل رسولاً قبله إلا اتهمه قومه بما اتُّهِم به ، فالآية فيها تصريح بما لم يُصرح في سورة فصلت ، فتفسير قوله تعالى :﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ بقوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢﴾ من تفسير القرآن بالقرآن وهو من قبيل بيان الإجمال الواقع بسبب الإبهام .

الأقوال الأخرى في معنى الآية :

١ ـ أن المراد بالآية : أذى المشركين للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن ذلك اتهامه بالسحر والجنون وهو قول قتادة وسهيل بن أبي صالح[١] وابن جرير وجمهور المفسرين .[٢]

٢ ـ أن المراد بالآية : هو ما يوحيه الله تعالى لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من التوحيد وغيره من أمر الدين اختاره الشيخ ثناء الله الهندي والدكتور محمد حجازي وأورده بعض المفسرين مع القول الأول بدون ترجيح بينهما .[٣]

٣ ـ ما تخبر إلا بما يخبر الأنبياء قبلك بأن ربك ذو مغفرة وذو عقاب أليم حكاه ابن عيسى[١] وقاله الكلبي وجوزه بعض المفسرين كالزمخشري[٢] وغيره .[٣]

---

[١] سهيل بن أبي صالح الإمام المحدث الكبير الصادق ، أبو يزيد المدني توفي سنة : (١٤٠هـ) (ينظر : سير أعلام النبلاء ج : ٥ ص : ٤٥٨ ـ ٤٦١ وشذرات الذهب ج : ١ ص : ٢٠٨)

[٢] انظر : تفسير الثوري ج : ١ ص : ٢٦٧ وتفسير الصنعاني ج : ٣ ص : ١٥٧ وتفسير الطبري ج : ٢١ ص : ٤٨١ وتفسير ابن أبي زمنين ج : ٢ ص : ٢٧٢ وتفسير الواحدي : ٨٥٣ وتفسير السمعاني ج : ٥ ص : ٥٥ والكشف والبيان ج : ٨ ص : ٢٩٨ ومعالم التنزيل : ١١٥٣ وزاد المسير ج : ٣ ص : ٣٠٨ ومفاتيح الغيب ج : ٢٧ ص : ٥٦٩ وتفسير العز بن عبدالسلام : ١٠٤٥ وتفسير القرطبي ج : ١٥ ص : ٢٣٦ وتفسير الخازن ج : ٤ ص : ٩١ وتفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٨٣ والدر المنثور ج : ١٣ ص : ١٢٣ وتفسير أبي السعود ج : ٦ ص : ٦٥ وفتح القدير ج : ٤ ص : ١٨ ومحاسن التأويل ج : ١٤ ص : ٢٨٠ وتفسير السعدي : ٧٥٠ والتفسير الوسيط لسيد طنطاوي ج : ١٢ ص : ٣٥٨ والتفسير المنير للزحيلي ج : ٢٤ ص : ٢٤٢

[٣] انظر : التسهيل لعلوم التنزيل : ١٩٢٢ والجواهر الحسان للثعالبي ج : ٣ ص : ٣٦٩ وتفسير القرآن بكلام الرحمن : ٦١٢ والتحرير والتنوير ج : ٢٥ ص : ٧٢ والتفسير الواضح ج : ٣ ص : ٣٤٥

القول الراجح :

القول الراجح في هذه المسألة والعلم عند الله تعالى هو احتمال الآية لجميع هذه الأقوال لدلالة القرآن عليه ، فأصحاب القول الأول فسروا الآية بقوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [٤] كما مر معنا وهو من تفسير القرآن بالقرآن كما ذكرت ذلك .

وأصحاب القول الثاني استدلوا على قولهم أيضاً بآية من القرآن وهو قوله تعالى : ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [٥]

وعلاقة الآية بقوله تعالى : ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴿٤٣﴾﴾ [٦] واضحة ، فالله تعالى أخبر رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن ما يقال له من الوحي ويخاطب به من جهة الله تعالى من أمر التوحيد وغيره ، هو ما أوحاه إلى الرسل ـ عليهم السلام من قبله ، وأكد على ذلك بقوله سبحانه : ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [٧] فأخبر سبحانه أنه وصى هذه الأمة بما وصى به الأمم السابقة لها من تقوى الله عز وجل بعبادته وحده لا شريك له [٨].

وأما بالنسبة إلى القول الثالث فإنه يدخل في جملة القول الثاني ، فما يخبر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والرسل ـ عليهم السلام ـ قبله أقوامهم من أمر التوحيد ، فإنه يدخل فيه ترغيب الناس وترهيبهم ، ويكون أيضاً من قبيل التفسير بالسياق .

---

[١] انظر : تفسير الماوردي ج : ٥ ص : ١٨٦ وابن عيسى هو : علي بن عيسى بن علي بن عبد الله أبو الحسن الرماني النحوي ، ولد سنة (٢٧٦) كان إماماً في العربية علامة في الأدب ، معتزلياً ، من كتبه : (له كتاب في التفسير ، والحدود الأكبر والأصغر) توفي سنة : (٣٨٤) ينظر : (طبقات المفسرين للداودي ج : ٢ ص : ٤١٩ . ٤٢١)

[٢] انظر : الكشاف ج : ٤ ص : ٢٠٢

[٣] انظر : المحرر الوجيز : ١٦٥٧والتفسير القرآني للقرآن ج : ١٢ ص : ١٣٢٨

[٤] الذاريات : ٥٢

[٥] النساء : ١٣١ وانظر : تفسير القرآن بكلام الرحمن : ٦١٢ حيث فسر الآية بآية سورة النساء

[٦] فصلت : ٤٣

[٧] النساء : ١٣١

[٨] ينظر : تفسير القرآن العظيم ج : ٢ ص : ٤٣١

يقول ابن عاشور بعد ما ساق القولين الأوليين : {وكلا المعنيين وارد في القرآن فيحمل الكلام على كليهما}[1]

وبهذا يتبين احتمال الآية لجميع هذه الأقوال كما ذكرت ذلك والعلم عند الله تعالى .

الآية المفسرة قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ فصلت : ٤٤

يأمر الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقول للناس أن هذا القرآن للذين يؤمنون بالله وبرسوله ـ صلى لله عليه وسلم ـ وصدقوا بما جاءهم من عند ربهم ، بيان لهم للحق ويهتدون بأحكامه وبما جاء فيه ، وشفاء لهم من الجهل وأمراض القلوب ولأسقام الأجساد ، وأما من لم يؤمن بالله وبرسوله ولم يصدق بما جاء به من عند ربه في آذانهم ثقل عن استماع هذا القرآن ، وهم في عمىً عنه فلا يبصرون حججه عليهم وما فيه من المواعظ ، فكأن حالهم حال من يناديه أحد من مكان بعيد ، فلا يستطيع أن يفهم منه ما يقوله له .[2]

تفسير القرآن بالقرآن :

وفيه مطلبان :

المطلب الأول :

تفسير الآية بقول الله تعالى :﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [3]

يقول ابن كثير رحمه الله تعالى :{ قوله :﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ أي: قل يا محمد : هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا

---

[1] انظر : التحرير والتنوير ج : ٢٥ ص : ٧٢

[2] ينظر : تفسير الطبري ج : ٢١ ص : ٤٨٣ ـ ٤٨٤

[3] الإسراء : ٨٢

يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي: لا يفهمون ما فيه﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ﴾ أي: لا يهتدون إلى ما فيه من البيان كما قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ }[1].

ويقول الشيخ ثناء الله الهندي : { ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ لأنهم يمتثلون ما أمرهم الله لقوله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ }[2].

وجه البيان :

إن الناظر في الآيتين الكريمتين يجد أنهما جاءتا في موضوع واحد ، فكلتا الآيتين تتحدثا عن عظمة هذا القرآن ، حيث أخبر الله تبارك وتعالى أن هذا القرآن هدىً للذين ءامنوا وذلك أن القرآن يهديهم إلى الصراط المستقيم ويخرجهم من الظلمات إلى النور كما قال تعالى:﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [3] ، وأنه شفاء لما في الصدور من أمراض النفاق وغيرها ، وشفاء للأجسام إذا رُقي الإنسان به كما قال تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾[4]، وأنه رحمة للمؤمنين حيث يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه [5] .

وأخبر الله تعالى أيضاً أن غير المؤمنين لا ينتفعون به ، فهم في صمم عن سماعه وعن فهم معانيه وقلوبهم عميت عنه [6]، فبذلك لا يزيدهم إلا خساراً .

فعلى هذا فإن الآيتين جاءتا يؤكد ويعضد كلاً منهما الآخر ، ببيان عظمة هذا القرآن وما جعل الله فيه من الخير والشفاء للمؤمنين ، : ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾[7]

---

[1] انظر : تفسير القرآن العظيم ج : ٧ ص : ١٨٤

[2] انظر : تفسير القرآن بكلام الرحمن : ٦١٢

[3] المائدة : ١٥ . ١٦

[4] يونس : ٥٧ وينظر : أضواء البيان ج : ٢ ص : ٣٢٦

[5] ينظر : تفسير ابن كثير ج : ٥ ص : ١١٢

[6] ينظر : فتح القدير ج : ٤ ص : ١٩

[7] الإسراء : ٨٢

وبهذا يتضح أن بيان الآية بآية سورة الإسراء يدخل في المصطلح الموسع لتفسير القرآن بالقرآن .

المطلب الثاني :

بيان قوله تعالى :﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾[1]

يقول ابن كثير رحمه الله تعالى :{ قال مجاهد : يعني بعيد من قلوبهم

قال ابن جرير : معناه : كأن من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد ، لا يفهمون ما يقول .

قال ابن كثير : قلت : وهذا كقوله تعالى : ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً‌ۚ صُمُۢ بُكۡمٌ عُمۡىٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ }[2] .

ويقول ثناء الله الهندي : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾[3] {يعني إن الذين كفروا إذا سمعوا القرآن لا يفهمونه ، بل لا يسمعونه إلا كما ينادي أحد من مكان بعيد فلا يسمع إلا صوتاً لقوله تعالى :﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً‌ۚ صُمُۢ بُكۡمٌ عُمۡىٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ }[4].

}[4].

وجه البيان :

بعد ما أخبر الله تبارك وتعالى في آية فصلت عدم انتفاع الكفار بالقرآن وأوضح ما هم فيه من الغي والضلال ، شبههم في آية البقرة بالدواب السارحة التي لا تفقه شيئاً مما يقال لها ، وليس لها علم بما يقول راعيها ومناديها ، فهم يسمعون مجرد الصوت ، الذي تقوم به عليهم الحجة ، ولكنهم لا يفقهونه فقها ينفعهم[5].

فبيان قوله تعالى :﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾[6] بقوله تعالى : ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً‌ۚ صُمُۢ بُكۡمٌ عُمۡىٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾[1] بيان صحيح وهو من تفسير القرآن بالقرآن ، وهو من قبيل بيان معنى آية بآية أخرى والعلم عند الله تعالى .

---

[1] فصلت : ٤٤

[2] تفسير القرآن العظيم ج : ٧ ص : ١٨٤

[3] فصلت : ٤٤

[4] انظر : تفسير القرآن بكلام الرحمن : ٦١٢

[5] ينظر : تفسير السعدي : ٨١

[6] فصلت : ٤٤

فالله تعالى صوّر فيها حال الكفار بعدم انتفاعهم بالقرآن وعدم قبولهم الحق ، كصفة الراعي الذي يصيح بالبهائم ويزجرها ، وهي لا تفهم معاني كلامه ، وإنما تسمع النداء ودوي الصوت فقط [٢].

واختلف أهل التفسير في تأويل الآية على قولين :

القول الأول : معنى ذلك: مثّل حالهم باعتبار عدم فهمهم للقرآن بحال من ينادي من مسافة بعيدة ، لا يسمع صوت من يناديه منها وهو قول مجاهد وابن زيد .

القول الثاني : ينادون يوم القيامة بأقبح أسماءهم من مكان بعيد وهو قول الضحاك بن مزاحم [٣].

القول الراجح :

عند الرجوع إلى كلام المفسرين رحمهم الله تعالى للآية نجد أن البعض منهم لم يذكر الخلاف في تفسير الآية ، ولكن فسروا الآية على القول الأول فمثلاً يقول أبو السعود رحمه الله : {تمثيلٌ لهم في عدمِ قبولِهم واستماعِهم له بمن ينادى من مسافةٍ نائيةٍ لا يكاد يسمعُ من مثلِها الأصوات }[٤].

---

[١] انظر : تفسير القرآن بكلام الرحمن : ٦١٢

[٢] ينظر : تفسير ابن كثير ج : ١ ص : ٤٨٠

[٣] انظر : تفسير الطبري ج : ٢١ ص :٤٨٤ . ٤٨٥ والمحرر الوجيز : ١٦٥٨ وتفسير العز بن عبدالسلام : ٥٠٧ وتفسير القرطبي ج : ١٥ ص :٢٣٧ وفتح القدير ج : ٤ ص : ١٩ والضحاك هو : الضحاك بن مزاحم البلخي الخراساني ، أبو محمد ، وقيل أبو القاسم مفسر له كتاب في التفسير كان من أوعية العلم، وليس بالمجود لحديثه، وهو صدوق في نفسه توفي سنة : (١٠٢هـ)وقيل (١٠٥هـ) ينظر : (سير أعلام النبلاء ج : ٤ ص : ٥٩٨ . ٦٠٠ والأعلام ج : ٣ ص : ٢١٥).

[٤] انظر : تفسير أبو السعود ج : ٦ ص : ٦٥

ويقول البغوي رحمه الله : { أنهم لا يسمعون ولا يفهمون كما أن من دعي من مكان بعيد لم يسمع ولم يفهم ، وهذا مثل لقلة انتفاعهم بما يوعظون به كأنهم ينادون من حيث لا يسمعون }[1].

ويعضد هذا القول قول الله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً‌ۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾[2] ، وبهذا يتبين أن القول الأول هو الراجح في تفسير الآية والعلم عند الله تعالى .

الآية المفسرة قوله تعالى :﴿ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحً۬ا فَلِنَفۡسِهِۦ‌ۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَا‌ۗ ﴾ فصلت : ٤٦

يخبر الله تبارك وتعالى في الآية الكريمة أن جزاء من عمل بطاعة الله في هذه الدنيا ، فأْتمر لأمره ، وانتهى عما نهاه عنه فلنفسه ذلك العمل الصالح ، ومن عمل بمعاصي الله فيها فإنما يرجع وبال ذلك عليه .[3]

تفسير القرآن بالقرآن :

وفيه مطلبان :

المطلب الأول :

أحال الشيخ الشنقيطي رحمه الله تفسير الآية وبيانها إلى قوله تعالى :﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ‌ۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَا‌ۚ ﴾[4]

وعند الوقوف على كلامه في آية سورة الإسراء قال رحمه الله تعالى : {بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن من أحسن أي بالإيمان والطاعة فإنه إنما يحسن إلى نفسه ، لأن نفع ذلك لنفسه خاصة ، وأن من أساء أي بالكفر والمعاصي فإنه إنما يسيء على نفسه ، لأن ضرر

---

[1] انظر : معالم التنزيل : ١١٥٣ وانظر : تفسير القرآن العظيم ج : ٧ ص : ١٨٤ وتفسير الجلالين : ٤٩٢ وتفسير السعدي :٧٥١ والتحرير والتنوير ج : ٢٥ ص : ٧٧ فقد ذكروا نحو هذا المعنى

[2] البقرة : ١٧١

[3] ينظر :جامع البيان ج : ٢١ ص :٤٨٧ وتفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٨٥

[4] الإسراء : ٧ وانظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٤٠٧

ذلك عائد إلى نفسه خاصة ، وبين هذا المعنى في مواضع أخر ، كقوله :﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ }[1].

وجه البيان :

يؤكد الله تعالى في كلتا الآيتين أن إحسان الإنسان بالعمل الصالح إنما يكون لنفسه ، وأن إساءته على نفسه بالكفر والمعاصي فإنما تكون على نفسه أيضاً ، ثم إن الله عز وجل بين في آية فصلت أن المراد بالإحسان الوارد في سورة الإسراء هو العمل الصالح ، وعلى هذا تكون آية فصلت مفسِّرةً لآية سورة الإسراء .

المطلب الثاني :

بيان الآية بقوله تعالى : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾[2]

فسر الشيخ ثناء الله الهندي رحمه الله الآية بقوله تعالى :﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ حيث ذكر آية فصلت ، وأتبعها بهذه الآية .[3]

وجه البيان :

يبين الله تبارك وتعالى في الآية الكريمة أمراً متعلقاً بآية سورة فصلت ، فبعد أن بين أنَّ عاقبة العمل الصالح وعاقبة العمل السيئ تعود أثرها على الإنسان نفسه ، وأكد هذا المعنى في آية سورة الإسراء حيث قال سبحانه وتعالى : ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ﴾[4]، ختم الآية الكريمة بقوله سبحانه : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾[5] وذلك

---

[1] انظر : أضواء البيان ج : ٢ ص : ٢١٦

[2] الإسراء :١٥

[3] انظر :تفسير القرآن بكلام الرحمن : ٦١٣

[4] الإسراء : ١٥

[5] الإسراء : ١٥

لبيان كمال وعظيم عدله على خلقه ، بأنه لن يعذبهم إلا بعد قيام الحجة عليهم وذلك بإرسال رسول إليهم .

يقول الشيخ السعدي رحمه الله عند تفسيره للآية :{ هداية كل أحد وضلاله لنفسه لا يحمل أحد ذنب أحد ، ولا يدفع عنه مثقال ذرة من الشر ، والله تعالى أعدل العادلين لا يعذب أحداً حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة ثم يعاند الحجة .

وأما من انقاد للحجة أو لم تبلغه حجة الله تعالى فإن الله تعالى لا يعذبه .

واستدل بهذه الآية على أن أهل الفترات وأطفال المشركين ، لا يعذبهم الله حتى يبعث إليهم رسولا لأنه منزه عن الظلم }[1].

فالله عز وجل بين في آية الإسراء وآية فصلت أن من عمل بمعاصي الله تعالى ، فقد أساء على نفسه واستحق بذلك العذاب ، ختم آية الإسراء ببيان أن هذا المسيء إنما يؤخذ على ذنبه بعد قيام الحجة عليه ولم يستجب لما دعي إليه ، وبهذا يصح تفسير الآية بآية سورة الإسراء ، وهو من المصلح المطابق لتفسير القرآن بالقرآن .

[1] انظر : تفسير السعدي : ٤٥٥

الآية المفسرة قوله تعالى : ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ فصلت : ٤٦

يخبر الله تعالى عن عظيم عدله بأنه لا يعاقب أحداً إلا بذنب ، ولا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، فالله تعالى ينفي الظلم عن نفسه جل وعز قليله وكثيره ، وإذا انتفت المبالغة انتفى غيرها [1] .

تفسير القرآن بالقرآن :

وفيه مطلبان :

المطلب الأول :

بيان الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [2] وبقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [3]

---

[1] ينظر : جامع البيان ج : ٢١ ص : وتفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٨٥ وتفسير القرطبي ج : ١٥ ص : ٢٣٧

[2] يونس : ٤٤

[3] النساء : ٤٠ انظر : تفسير الجلالين : ٤٩٢ وتفسير ثناء الله الهندي : ٦١٣ وأضواء البيان ج : ٤ ص : ٤٠٨

يقول القرطبي رحمه الله في تفسير آية فصلت :{ نفى الظلم عن نفسه جل وعز قليله وكثيره ، وإذا انتفت المبالغة انتفى غيرها ، دليله قوله الحق :﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٤﴾ } [1]

جاء في تفسير الجلالين : {﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ أي : بذي ظلم لقوله تعالى :﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾ }[2]

وجه البيان :

بعد أن بين الله تعالى في آية فصلت من كونه ليس بظلامٍ للعبيد ، بين في آيتي النساء ويونس أنه لا يظلم أحداً من خلقه شيئاً فلا يزيد في سيئات أحدٍ منهم ولا ينقص من حسناتهم وزن ذرة[3] ، وبين أن النفي يرجع إلى الأصل لا إلى المبالغة ، بل ومن رحمته أنه يضاعف من حسنات المحسن منهم إن أحسن ابتغاء وجه الله عز وجل ، فبيان الآية بآيتي سورتي النساء ويونس بيان صحيح وهو من تفسير القرآن بالقرآن ، وهو من قبيل بيان معنى آية بآية أخرى .

المطلب الثاني :

بيان الآية بقول الله تعالى : ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٢٩﴾[4]

يقول الشنقيطي رحمه الله : { ما ذكره – جل وعلا – في هذه الآية الكريمة من كونه ليس بظلام للعبيد – ذكره في مواضع أخر ، كقوله – تعالى – في سورة «آل عمران» :﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ﴾[5] الآية . وقوله في «الأنفال»

---

[1] انظر :الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج : ١٥ ص : ٢٣٧ وانظر : فتح القدير ج : ٤ ص : ٢٠ وأضواء البيان ج : ٤ ص : ٤٠٨ فقد أشار الشوكاني والشنقيطي رحمهما الله تعالى إلى هذه الآية .

[2] انظر : تفسير الجلالين : ٤٩٢ وانظر : تفسير ثناء الله الهندي : ٦١٣ وأضواء البيان ج : ٤ ص : ٤٠٨ فقد فسرا الآيتين أيضاً بآية سورة النساء .

[3] الذرة : واحد الذر وهي النمل الصغار وقيل هي رأس النملة وقيل الخردلة كل جزء من أجزاء الهباء الذي يظهر فيما يدخل من الشمس من كوة أو غيرها ذرة . والأوّل هو المعنى اللغوي الذي يجب حمل القرآن عليه انظر : فتح القدير ج : ١ ص : ٤٢٠ .

[4] ق : ٢٢٩ ذكرت أنها هي المفسِّرة لأنها هي الموضوعة في الخطة .

[5] آل عمران : ١٨٢ . ١٨٣

: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [1] الآية. وقوله في «الحج» : ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [2] الآية . وقوله في سورة «ق» : ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ } [3].

وجه البيان :

أخبر الله تعالى في آية سورة فصلت أنه لا يظلم أحداً من عباده ، فيؤاخذه بما لا يستحق ، وأكد على هذا المعنى في آية سورة «ق» فقال سبحانه : ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ .

فالناظر إلى الآية المفسَّرة والمبيِّنة لها يجد أنهما متشابهتين في المعنى ، وجمع الآيات المتشابهة في المعنى أو الموضوع يدخل في المصطلح الموسع لتفسير القرآن بالقرآن .

يقول الشنقيطي رحمه الله : { وفي هذه الآيات سؤال معروف أي قوله تعالى :﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [4] وقوله تعالى :﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [5] وقوله تعالى :﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [6] ، وهو أن لفظة (ظلام) فيها صيغة مبالغة ، ومعلوم أن نفي المبالغة لا يستلزم نفي الفعل من أصله ، فقولك مثلا : زيد ليس بقتال للرجال لا ينفي إلا مبالغته في قتلهم ، فلا ينافي أنه ربما قتل بعض الرجال .

ومعلوم أن المراد بنفي المبالغة في الآيات المذكورة هو نفي الظلم من أصله .

والجواب عن هذا الإشكال من أربعة أوجه :

الوجه الأول : أن نفي صيغة المبالغة في الآيات المذكورة قد بينت آيات كثيرة أن المراد به نفي الظلم من أصله ، ونفي صيغة المبالغة إذا دلت أدلة منفصلة على أن يراد به نفي أصل

---

[1] الأنفال : ٥١ . ٥٢

[2] الحج : ١٠ . ١١

[3] انظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٤٠٧

[4] فصلت : ٤٦

[5] تكررت هذه الآية في سور : آل عمران : ١٨٢ والأنفال : ٥١ والحج : ١٠

[6] ق : ٢٢٩

الفعل ، فلا إشكال لقيام الدليل على المراد ، والآيات الدالة على ذلك كثيرة معروفة ، كقوله تعالى :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٤ ﴾ [1]

الوجه الثاني : أن الله – جل وعلا – نفى ظلمه للعبيد ، والعبيد في غاية الكثرة ، والظلم المنفي عنهم تستلزم كثرتهم كثرته ، فناسب ذلك الإتيان بصيغة المبالغة للدلالة على كثرة المنفي التابعة لكثرة العبيد المنفي عنهم الظلم ، إذ لو وقع على كل عبد ظلم ولو قليلا ، كان مجموع ذلك الظلم في غاية الكثرة كما ترى [2].

وبذلك تعلم اتجاه التعبير بصيغة المبالغة ، وأن المراد بذلك نفي أصل الظلم عن كل عبد من أولئك العبيد ، الذين هم في غاية الكثرة ، سبحانه وتعالى عن أن يظلم أحدا شيئا ، كما بينته الآيات القرآنية المذكورة ، وفي الحديث : ((يا عبادي إني حرَمت الظُّلم على نفسي وجعلته بينكم محرَّماً فلا تظالموا ....))[3].

الوجه الثالث : أن المسوغ لصيغة المبالغة أن عذابه – تعالى – بالغ من العظم والشدة أنه لولا استحقاق المعذبين لذلك العذاب بكفرهم ومعاصيهم – لكان معذبهم به ظلاماً بليغ الظلم متفاقمة ، سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا .[4]

الوجه الرابع : ما ذكره بعض علماء العربية وبعض المفسرين من أن المراد بالنفي في قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦ ﴾[5]نفي نسبة الظلم إليه ؛ لأن صيغة فعال تستعمل مرادا بها النسبة ، فتغني عن ياء النسب }[6].

ومن هنا يتبين لنا أن المقصود بقوله تعالى :﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦ ﴾ هو نفي الظلم من أصله ، والله تعالى ذكر في سياق آيات آل عمران والأنفال والحج أسباب استحقاق أهل النار دخولهم إليها وهو بما كسبته أيديهم وما اقترفوه على أنفسهم من الكفر بالله تعالى قال سبحانه :﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ

---

[1] يونس : ٤٤

[2] انظر : تفسير الكشاف ج : ٢ ص : ٢٢٩

[3] رواه مسلم ج : ٨ ص : ١٦ رقم الحديث : ٦٧٣٧ باب تحريم الظلم

[4] انظر : تفسير الكشاف ج : ٢ ص : ٢٢٩

[5] فصلت : ٤٦

[6] انظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٤٠٨

ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [1] وقال سبحانه في سياق آية سورة الأنفال :﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ [2] ويقول تعالى في سورة الحج :﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [3]

فيتبين بذلك صحة تفسير قوله تعالى :﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ بآيتي سورتي النساء ويونس لأن الله تعالى بين فيها أن المقصود بآية فصلت هو نفي الظلم من أصله عنه تبارك وتعالى .

الآية المفسرة قوله تعالى :﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ فصلت:٤٧

يخبر الله تعالى أنه إليه وحده يرد علم الساعة ومتى يكون قيامها ، فلا يعلم وقت قيامها ملك مقرب ولا نبي مرسل .[4]

تفسير القرآن بالقرآن :

فسرت الآية بقول الله تعالى : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [5]

يقول ابن كثير رحمه الله تعالى : {أي: لا يعلم ذلك أحد سواه ، كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وهو سيد البشر لجبريل وهو من سادات الملائكة –حين سأله عن الساعة ، فقال:

---

[1] آل عمران : ١٨١ ـ ١٨٣

[2] الأنفال : ٥٠ ـ ٥٢

[3] الحج : ٩ ـ ١١

[4] ينظر : تفسير الطبري ج : ٢١ ص: ٤٨٧ والكشف والبيان ج :٨ ص : ٢٩٩

[5] الأعراف : ١٨٧ انظر : تفسير ابن كثير ج : ٧ ص :١٨٥ وتفسير المنار ج : ٩ ص :٣٨٩ وأضواء البيان ج : ٤ ص : ٤٠٩(أحال الشيخ إليها) والتحرير والتنوير ج : ٢٥ ص : ٨١ وتفسير المراغي ج :٢٥ ص : ٤

((ما المسئول عنها بأعلم من السائل)) [1]، وكما قال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾﴾ [2]، وقال : ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ } [3]

وجه البيان :

يبين الله تبارك وتعالى في الآيتين الكريمتين أن علم قيام الساعة لا يعلمها إلا هو ، وأعظم الناس وهو النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما سأله جبريل ـ عليه السلام ـ عن موعد قيام الساعة ، فقال له : ((ما المسؤول عنها بأعلم من السائل)) فإذا سئل إنسان عنها يرد ذلك إلى الله تعالى وحده .

والله تبارك وتعالى أخبر أن المشركين يكثرون من سؤال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الساعة التي تنتهي بها هذه الدنيا ، وذلك استبعاداً لوقوعها ، وتكذيباً بوجودها ، ويقولون : متى يحين وقت رسوها واستقرارها ﴿ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ ؟ وبين في الآية الكريمة وفي آية فصلت أن علمها إذا سئل عنها مردود إليه لا يعلمه غيره ، فإلى الله تعالى يرد علمها حينما يسأل الناس بعضهم بعضاً عنها قال تعالى : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ [4]

وقال سبحانه :﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [5] .

فآية سورة فصلت لها تعلّق بآية سورة الأعراف ، ففيها بيان بأن جميع الخلق يردون علمهم إلى الله تعالى ، ومن ذلك علم قيام الساعة ، والبعض من المفسرين ذكروا أن سبب نزول الآية هو سؤال المشركين النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن وقت قيام الساعة فنزلت آية

---

[1] رواه البخاري ج : ١ ص : ٢٠ رقم الحديث : ٥٠ كتاب بدء الوحي ومسلم ج : ١ص : ٣٦ رقم الحديث :٨ باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان

[2] النازعات : ٤٤

[3] انظر : تفسير ابن كثير ج : ٧ ص :١٨٥

[4] النازعات : ٤٢ ـ ٤٤ ينظر : جامع البيان ج : ٢١ ص : ٤٧٨ وتفسير البغوي : ١١٥٣

[5] لقمان : ٣٤ وبهذه الآية فسر بعض المفسرين آية فصلت انظر: تفسير الرازي ج : ٢٧ ص : ١١٧ والتفسير الواضح ج : ٣ ص : ٣٤٩ الوسيط للزحيلي ج : ٣ ص : ٢٣١٧

فصلت [1]، والله عز وجل ذكر في آية الأعراف أنهم كانوا يسألونه ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن ذلك فبذلك تكون آية الأعراف مبينةً لآية سورة فصلت .

يقول ابن عاشور :{ كانوا إذا أنذروا بالبعث وساعته استهزؤوا فسألوا عن وقتها ، وكان ذلك مما يتكرر منهم ، قال تعالى :﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾[2] فلما جرى ذكر دليل إحياء الموتى وذكر إلحاد المشركين في دلالته بسؤالهم عنها استهزاءً ، انتقل الكلام إلى حكاية سؤالهم تمهيداً للجواب عن ظاهره ، وتقديم المجرور على متعلقه لإفادة الحصر ، أي إلى الله يفوض علم الساعة لا إلي ، فهو قصر قلب.

ورد عليهم بطريق الأسلوب الحكيم، أي الأجدر أن تعلموا أن لا يعلم أحد متى الساعة وأن تؤمنوا بها وتستعدوا لها}[3].

وعلى هذا يصح تفسير قول الله تعالى :﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ﴾ [4] بآية سورة الأعراف ، لأن فيها بيان بأن جميع الخلق يردون علم قيام الساعة إلى الله تعالى .

الآية المفسرة قوله تعالى : ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ فصلت:٤٧

يخبر الله تبارك وتعالى عن علمه بما تحمله الأنثى في بطنها من جنينٍ ، وأنها لا تضع ذلك الحمل إلا بعلمه ، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ـ سبحانه وتعالى ..[5]

تفسير القرآن بالقرآن :

فسرت الآية بقول الله تعالى :﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾[1] يقول الشيخ عبدالكريم الخطيب : { فما حملت أنثى حملاً ، ولا وضعته ، إلا

---

[1] انظر : الكشف والبيان ج :٨ ص : ٢٩٩ وتفسير القرطبي ج : ٨ ص : ٢٣٨ والبحر المحيط ج : ٩ ص : ٣١٤ وفتح القدير ج : ٤ ص :٢٠ والتحرير والتنوير ج : ٢٥ ص : ٨١

[2] الأعراف : ١٨٧

[3] انظر : التحرير والتنوير ج : ٢٥ ص : ٨١

[4] فصلت : ٤٧

[5] ينظر : تفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٨٥ وفتح القدير ج : ٤ ص : ٢٠

إلا والله سبحانه وتعالى عالمٌ بما تحمل كل أنثى ، وما تضع من حمل ، كما يقول سبحانه في آية أخرى :﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۝٨ ﴾ }[٢].

وجه البيان :

بعد أن بين الله تعالى في آية سورة فصلت عن علمه بما تحمله كل أنثى في بطنها من جنين فيعلم سبحانه قدر أيام الحمل وساعاته ، ومتى يكون الوضع ، وذَكَر الحمل هو أم أنثى ، ويعلم أحواله : من الخداج[٣] والتمام والحسن والقبح ، ويعلم وقت وضع الأجنة فإن الإناث تكون حوامل مثقلة ولا يعلم وقت وضعها باليوم والساعة إلا الله [٤] أكد ذلك المعنى في آية الرعد فقال سبحانه :﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۝٨ ﴾ أي : الله وحده هو الذي يعلم ما تحمله كل أنثى في بطنها من علقة أو مضغة ومن ذكر أو أنثى وهو وحده – سبحانه – الذي يعلم ما يكون في داخل الأرحام من نقص في الخلقة أو زيادة فيها ، ومن نقص في مدة الحمل أو زيادة فيها ، ومن نقص في العدد أو زيادة فيه .[٥] ثم أكد على تمام علمه بهذا كله فقال سبحانه :﴿ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۝٨ ﴾[٦] أي : لا يجاوز شيء من قَدَره عن تقديره ، ولا يقصر أمر أراده فَدَبَره عن تدبيره ، كما لا يزداد حمل أنثى على ما قُدِّرَ له من الحمل ، ولا يُقصِّر عما حُدّ له من القدر ، فلا يتقدم عليه ولا يتأخر ولا يزيد ولا ينقص إلا بما تقتضيه حكمته وعلمه .[٧]

---

[١] الرعد : ٨ وانظر : تفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٨٥ وأضواء البيان ج : ٤ : ص : ٤٠٩ (أحال الشيخ إليها)والتفسير القرآني للقرآن ج :١٣ ص : ٣ والتفسير المنير للزحيلي ج : ٢٥ ص : ٦ والتفسير الواضح ج : ٣ ص : ٣٤٩

[٢] انظر : التفسير القرآني للقرآن ج :١٣ ص : ٣

[٣] خدجت الناقة خداجاً : ألقت ولدها قبل تمام الأيام ، فهي خادج ، وهو خديج ، أو أخدجت : إذا جاءت به ناقص الخلق ، فهو مخدج ، وهو مخدج فمعنى الخداج أي : النقصان انظر : مختار الصحاح : ٩٩

[٤] ينظر : الكشاف ج : ٤ ص : ٢٠٤ وتفسير الخازن ج : ٤ ص : ٩٢ والتحرير والتنوير ج : ٢٥ ص : ٨٢

[٥] ينظر : تفسير سيد طنطاوي ج : ٧ ص : ٤٥٠

[٦] ينظر : التفسير القرآني للقرآن ج :١٣ ص : ٣

[٧] ينظر :جامع البيان ج : ١٦ ص : ٣٥٩ وتفسير السعدي : ٤١٤

فكلتا الآيتين جاءتا لتبين استئثار الله تعالى بما تحمله الأنثى في بطنها من جنين ، وأنه سبحانه عالمٌ بحال هذا الجنين أثناء وجوده في رحم أمّه وعند خروجه منه كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ ﴾[1]، فالله تعالى أكد في آية الرعد ما ذكره في آية فصلت ببيان أن الله تعالى وحده هو المتفرد بعلم ما تحمله كل أنثى في بطنها من جنين ، فبيان الآية بآية سورة الرعد يدخل في المصطلح الموسع لتفسير القرآن بالقرآن .

الآية المفسرة قوله تعالى:﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ٤٨﴾فصلت:٤٨

يخبر الله تبارك وتعالى عن المشركين أنهم عندما يشاهدون ويعاينون العذاب والحقائق يوم القيامة ، علموا في ذلك الوقت أهم ليس لهم مفرٌ ولا ملجأٌ يفرون ويلجؤون إليه .[2]

تفسير القرآن بالقرآن :

وفيه مطلبان :

المطلب الأول :

---

[1] لقمان : ٣٤

[2] ينظر : جامع البيان ج : ٢١ ص : ٤٨٩ والكشف والبيان ج : ٨ ص : ٢٩٦ وأضواء البيان ج : ٤ ص :٤٠٧

بيان الآية بقول الله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾[1] فسرها بذلك الشيخ الشنقيطي رحمه لله حيث يقول : {الظن هنا بمعنى اليقين ، لأن الكفار يوم القيامة إذا عاينوا العذاب ، وشاهدوا الحقائق علموا في ذلك الوقت أنهم ليس لهم من محيص ، أي ليس لهم مفر ولا ملجأ .

والظاهر أن المحيص مصدر ميمي ، من حاص يحيص بمعنى حاد وعدل وهرب .

وما ذكرنا من أن الظن في هذه الآية الكريمة بمعنى اليقين والعلم – هو التحقيق – إن شاء الله – ؛ لأن يوم القيامة تنكشف فيه الحقائق ، فيحصل للكفار العلم بها لا يخالجهم في ذلك شك ، كما قال تعالى عنهم أنهم يقولون يوم القيامة :﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾}[2] .

وجه البيان :

إن تفسير الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى من تفسير القرآن بالقرآن ، فالله عز وجل ذكر في آية سورة السجدة ما يرجح أن معنى الظن الوارد في قوله تعالى :﴿وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾أن المراد به : اليقين ، خلافاً لمن قال أن الظن معناه هنا : الشك .

يقول الشوكاني رحمه الله في تفسير الآية : { أي : أيقنوا ، وعلموا أنه لا محيص لهم ، يقال: حاص يحيص حيصاً : إذا هرب .

وقيل : الظنّ على معناه الحقيقي؛ لأنه بقي لهم في تلك الحال ظنّ ، ورجاء ، والأوّل أولى}[3].

ويقول الدكتور محمد حجازي : {وظن الكفار أولاً أن لهم منجى ثم تيقنوا الآن أنه لا محيص ولا مهرب من عذاب اللّه } ، وقيل : { إن الظن هنا مراد به اليقين} .[4]

والناظر في تفسير المفسرين رحمهم الله تعالى للآية يجد أن أكثرهم ذكروا أن المراد بالظن في الآية معناه : اليقين [1]، وبهذا يتعين صحة تفسير الآية بآية السجدة لأن الله تعالى أحبر

---

[1] السجدة : ١٢

[2] انظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٤٠٧

[3] انظر : فتح القدير ج : ٤ ص : ٢١

[4] انظر : التفسير الواضح ج : ٣ ص : ٣٤٩

عنهم في آية فصلت بأنهم عند وقوفهم ومشاهدتهم النار أيقنوا بأنهم لا مفرَّ لهم من العذاب كما قال تعالى :﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ١٠﴾[٢]

وأخبر في آية السجدة بأنهم يتمنوا الرجوع للدنيا ليعملوا فيها بطاعة الله تعالى ، عندما يوقنون أن وعد الله حق ولقاؤه حق ، وأن الله يبعث من في القبور ، ويقولون : أرجعنا إلى الدنيا لنعمل فيها بطاعتك .[٣] .

فبيان الآية بآية سورة السجدة هو من باب بيان معنى آية بآية أخرى والعلم عند الله تعالى .

المطلب الثاني :

بيان الآية بقول الله تعالى :﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ٥٣﴾[٤]

يقول ابن كثير رحمه الله :﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ٤٨﴾ {أي : وظن المشركون يوم القيامة ، وهذا بمعنى اليقين ، ﴿مِّن مَّحِيصٍ ٤٨﴾ أي: لا محيد لهم عن عذاب الله ، كقوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ٥٣﴾ }[٥].

---

[١] انظر : جامع البيان ج : ٢١ ص : ٤٨٩ والنكت والعيون ج : ٥ ص : ١٨٧ وتفسير السمعاني ج : ٥ : ٥٩ وتفسير البغوي : ١١٥٤ والكشف والبيان ج :٨ ص :٢٩٦ وتفسير ابن عطية : ١٦٥٧ وتفسير العز بن عبدالسلام : ٥٠٧ والتسهيل لعلوم التنزيل : ١٩٢٥ والبحر المحيط ج : ٩ ص : ٣١٥ وتفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٨٥ واللباب ج : ١٧ ص : ١٥٥ وتفسير الجلالين : ٤٩٣ وروح المعاني ج : ١٤ ص : ٦ ومحاسن التأويل للقاسمي ج : ١٤ ص : ٢٨٣ وتفسير السعدي : ٧٥١ والتحرير والتنوير ج : ٢٥ ص : ٨٣ والتفسير الوسيط لسيد طنطاوي ج : ١٢ ص : ٣٦٤ والتفسير القرآني للقرآن ج : ١٣ ص :٦ والتفسير المنير ج : ٢٥ ص : ٧ وتفسير المراغي ج : ٢٥ ص : ٣

[٢] القيامة : ١٠ أشار الشيخ الهندي عند تفسيره لآية فصلت إلى هذه الآية حيث ذكر الآية ثم قال : مهرب يهربون إليه ثم ذكر آية سورة القيامة : ٦١٣

[٣] ينظر : تفسير ابن كثير ج : ٦ ص : ٣٦٢

[٤] الكهف : ٥٣

[٥] انظر : تفسير القرآن العظيم ج : ٧ ص : ١٨٥

ويقول الزحيلي عند تفسيره لآية فصلت : {أي ذهبت عنهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها في الدنيا ، من الأصنام وغيرها فلم تنفعهم ، وتيقنوا وعلموا ألا مهرب لهم ولا ملجأ من عذاب الله كقوله تعالى:﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾[1] وهذا وعيد وتهديد للمشركين }[2].

وجه البيان :

يخبر الله تبارك وتعالى في آية سورة الكهف عن المشركين أنهم لما رأوا النار علموا وتيقنوا أنهم داخلون فيها ، ولم يجدوا عن النار التي رأوا معدلاً يعدلون عنها إليه ، وليس لهم طريق يعدل بهم عنها ولا بد لهم منها ، لأن الله قد حتم عليهم ذلك .[3]

وهذا المعنى هو الذي ذكره الله تعالى في آية فصلت ، فأخبر في كلتا الآيتين أنهم عند رؤيتهم النار تيقنوا بأنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مهرباً يفرون إليه ، وذكر الله تعالى في هذه الآية معنىً آخر لقوله تعالى : ﴿ مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ ﴾[4] فسرها بقوله : ﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾ فيصح تفسير الآية بآيتي سورتي السجدة والكهف ، وذلك أن الله تعالى ذكر فيهما بياناً لآية فصلت وهذا من أنواع البيان للقرآن بالقرآن ، والعلم عند الله تعالى .

الآية المفسرة قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ فصلت: ٥٠

يخبر الله تعالى في هذه الآية عن حال الإنسان الكافر أنه إذا أنعم الله تعالى عليه برخاءٍ وعافيةٍ ورُزق مالاً ، فوسّع عليه في معيشته من بعد الجهد والضر مسته في ذهاب مال أو مرض ليقولن هذا بعملي واستحقاقي ، ثم يقول :﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ وهذا إنكار منه للبعث، وكفر للنعمة والرحمة التي أذاقها الله له ، ويقول أيضاً : ولئن كان ثَمَّ معاد فليحسنن إلي ربي ، كما أحسن إلي في هذه الدار ، يتمنى على الله ـ عز وجل ـ

---

[1] الكهف : ٥٣

[2] انظر : التفسير المنير ج : ٢٥ ص : ٧

[3] ينظر : تفسير مقاتل بن سليمان ج : ٢ ص : ٢٩٢ وجامع البيان ج : ١٨ ص : ٤٨ وتفسير ابن كثير ج : ٥ ص : ١٧١

[4] فصلت : ٤٨

مع إساءته العمل وعدم اليقين ، ثم يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال .[1]

تفسير القرآن بالقرآن [2]:

وفيه مطلبان :

المطلب الأول :

فسرت الآية بقول الله تعالى :﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[3]

يقول الرازي بعد أن فسر الآية : { ولما حكى اللّه تعالى عنهم هذه الأقوال الثلاثة الفاسدة قال :﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي : نظهر لهم أن الأمر على ضد ما اعتقدوه وعلى عكس ما تصوروه كما قال تعالى :﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾ في مقابلة قولهم :﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ }[4] .

وجه البيان :

بعد أن أخبر الله تبارك وتعالى في آية فصلت عن حال الكفار وقولهم : أن ما أُنعم عليهم من النعم إنما هو لاستحقاقهم له وأخبر بأنهم ينكرون البعث يوم القيامة ، وأنهم إن ردوا إلى الله تعالى فإنه سيحسن إليهم كما أحسن إليهم في الدنيا ، وأخبر سبحانه أنه سينبؤهم بما عملوا من المعاصي وأنه سيذيقم عذاب يوم القيامة ، بين في آية الفرقان مصير ومآل أعمالهم التي كانوا يعملون بها في الحياة الدنيا والتي ظنوا أنها ستفيدهم يوم القيامة ، فالأمر ليس كما زعموا بل إن أعمالهم ستكون هباءً منثوراً .

---

[1] ينظر : جامع البيان ج : ٢١ ص : ٤٩١ وتفسير ابن أبي زمنين ج : ٢ ص : ١٣٥ وتفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٨٦ وتفسير السعدي : ٧٥٢

[2] ذكرت في الخطة أن الآية المفسِّرة لهذه الآية قوله تعالى : ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف:٣٦] لإحالة الشيخ الشنقيطي رحمه الله لها انظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٤١٠ وبالرجوع إلى شرحه لآية سورة الكهف ذكر أن آية فصلت هي المبيِّنة والمفسِّرة لآية سورة الكهف انظر : أضواء البيان ج : ٢ ص : ٣٨٦

[3] الفرقان : ٢٣

[4] انظر : مفاتيح الغيب ج : ٢٧ ص : ٥٧٣ وانظر : الكشاف ج : ٤ ص : ٢٠٥فقد أشار إلى آية الفرقان

فالله تعالى بعد أن أخبر في آية فصلت مصير أعمالهم السيئة ، بين في آية الفرقان مصير أعمالهم الحسنة حيث بين سبحانه أنها لا تنفعهم على عكس ما تصوروه واعتقدوه ، وأنها تكون كالهباء المنثور ، فبيان الآية بآية سورة الفرقان بيان صحيح وهو من تفسير القرآن بالقرآن ، وهو من قبيل بيان الموجز بالمفصل .

المطلب الثاني :

بيان الآية بقول الله تعالى :﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾[1]

يقول ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير قول الله تعالى :﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ { أي: يَكْفُر بقيام الساعة ، أي: لأجل أنه خُوِّل نعمة يفخر ، ويبطر ، ويكفر ، كما قال تعالى:﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ }[2].

ويقول الزحيلي في تفسيرها : {أي وما أعتقد أن القيامة ستقوم ، كما يخبرنا به الأنبياء ، فلا رجعة ولا حساب ولا عقاب على ذنب في الدنيا ، ولأجل أنه رزق نعمة يبطر ويفخر ويكفر ثم ذكر الآية }[3].

وجه البيان :

يبين الله تعالى في آيتي سورة العلق أن سبب مقولة الكفار المذكورة في سورة فصلت ، إنما هو ناتج عن طغيانهم واستكبارهم وخروجهم عن طاعة الله عز وجل ، فالله تبارك وتعالى ذكر في الآيتين متعلِّقاً بآية سورة فصلت ، حيث ذكر السبب الذي حمل هؤلاء الكفار على الطغيان ، وهو إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله .

فبيان الآية بآيتي سورة العلق بيان صحيح وهو من تفسير القرآن بالقرآن .

ومعنى الآيتين : {أي حقاً إن الإنسان ليتعاظم ويتكبر ويتمرد على الحق ، لأنه رأى نفسه ذا غنى في المال والجاه والعشيرة ، ورآها – لغروره وبطره – ليست في حاجة إلى غيره }[4]

---

[1] العلق : ٦ . ٧

[2] العلق : ٦ . ٧ وانظر : تفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٨٦

[3] انظر : التفسير المنير ج : ٢٥ ص : ١١

[4] انظر : التفسير الوسيط ج : ١٥ ص : ٤٥٥

الآية المفسرة قوله تعالى : ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ٥١﴾ فصلت: ٥١

يخبر الله تعالى في هذه الآية أن الإنسان في حال إنعام الله تعالى عليه بالخير والعافية فإنه يعرض عن دعاء ربه وعن ما دعي إليه من الطاعة ، ويتباعد عن إجابة الدعوة ، وفي حال مسِّ الكرب له ، فإنه يبتهل إلى الله تعالى ويطيل المسألة كي يستجاب له .[1]

[1] ينظر : تفسير مقاتل بن سليمان ج : ٣ ص: ١٧١ وجامع البيان ج : ٢١ ص : ٤٩١ وتفسير ابن أبي زمنين ج : ٢ ص : ١٣٥ وتفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٨٦

يقول ابن كثير رحمه الله : {فالكلام العريض ما طال لفظه وقل معناه ، والوجيز عكسه وهو ما قل ودل }[1]

تفسير القرآن بالقرآن :

وفيه مطلبان :

المطلب الأول :

فسرت الآية بقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[2]

يقول ابن كثير رحمه الله { ثم قال : ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾أي : أعرض عن الطاعة ، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله عز وجل كقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾[3]

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي: الشدة ، ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ أي : يطيل المسألة في الشيء الواحد فالكلام العريض : ما طال لفظه وقل معناه ، والوجيز: عكسه ، وهو : ما قل ودل . وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[4] }[5]

وجه البيان :

إن الناظر في آية سورة فصلت وآية سورة يونس يجد أنهما جاءتا في موضوع واحد ، وهو بيان حال الإنسان مع ربه تبارك وتعالى في حال السراء والضراء ، فإذا أصابته سراء أعرض عن دعاء ربه ، وإذا أصابته ضراء فإنه يبتهل إلى الله تعالى بالدعاء حتى يستجيب له .

فبيان الآية بآية سورة يونس يدخل في المصطلح الموسع لتفسير القرآن بالقرآن ، وهو من باب جمع الآيات المتشابهة في الموضوع والعلم عند الله تعالى .

المطلب الثاني :

---

[1] انظر : تفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٨٦

[2] يونس : ١٢ انظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٤١٠

[3] الذاريات : ٣٩

[4] يونس : ١٢ انظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٤١٠

[5] انظر : تفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٨٦

أحال الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى تفسير آية فصلت إلى قوله تعالى :﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [1]

وعند شرحه لآية سورة يونس ذكر عدداً من الآيات التي أخبر الله تعالى فيها أن الإنسان وقت الكرب يبتهل إلى الله بالدعاء ، وإذا أفرج الله عنه أعرض عن ذكر ربه ونسي ما كان فيه كأن لم يكن فيه بؤس قط .

ثم بعد ذكره للآيات قال رحمه الله : {إلا أن الله استثنى من هذه الصفات الذميمة عباده المؤمنين بقوله في سورة هود :﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ }[2].

وجه البيان :

الذي يتبادر إلى الذهن لمن قرأ آية فصلت ويونس وغيرهما من الآيات التي ذكر الله تعالى فيها حال الإنسان مع ربه حين تمسه النعمة ويمسه الضر ، أن هذا الحال لجميع الناس ، ولكن الله تبارك وتعالى بين من خلال آية سورة هود أن هذا المعنى لا ينطبق على جميع الناس ، إنما ينطبق على الكافر بربه تبارك وتعالى .

فقول الله تعالى :﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [3] بعد قوله سبحانه : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ ﴾[4] جاء الاستثناء ليستثني من عباده الذين صبروا وعملوا الصالحات ، فدل بذلك أن المراد بالإنسان هو الكافر بربه عز وجل .

يقول ابن جرير رحمه الله تعالى :{وإذا نحن أنعمنا على الكافر، فكشفنا ما به من ضرّ، ورزقناه غنى وسعة ، ووهبنا له صحة جسم وعافية ، أعرض عما دعوناه إليه من طاعته ،

---

[1] يونس : ١٢ انظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٤١٠

[2] هود : ١٠ . ١١ وانظر : أضواء البيان ج : ١ ص : ٥١٠

[3] هود : ١١

[4] هود : ١٠

وصدّ عنه ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾[1] يقول : وبعد من إجابتنا إلى ما دعوناه إليه، ويعني بجانبه بناحيته}.

ويقول القرطبي[2]رحمه الله عند تفسير قوله سبحانه : ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ قال :{ يريد الكافر}[3]

ويقول ابن عطية رحمه الله : {ذكر الله تعالى الخلق الذميمة من الإنسان جملة ، وهي في الكفار بينه متمكنة ، وأما المؤمن في الأغلب فيشكر عند النعمة ، وكثيراً ما يصبر عند الشدة }[4].

وذكر عدد من المفسرين رحمهم الله تعالى أن المراد بالإنسان في هذه الآية هو الكافر الذي إذا أعطي النعمة يتكبر ويغتر ويجحد ، وفي حالة إنزال الشدائد به يتضرع ويتذلل إلينا بالدعاء الكثير الواسع .[5]

ومما يدل على أن المراد بالإنسان هو الكافر قوله تعالى في سورة الزمر :﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ٨﴾[6]

فهذه الآية من ضمن الآيات التي ذكرها الشيخ الشنقيطي رحمه الله والتي جاءت لتبين حال معاملة الكافر مع ربه تبارك وتعالى ، فقوله سبحانه :﴿قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ٨﴾[7]جاءت هذه الجملة مصرحةً بأن هذا هو حال الكافر بأمر الله تعالى رسوله . صلى

---

[1] فصلت : ٥١

[2] محمد بن أحمد بن أبي فرح الأنصاري الخزرجي المالكي أبو عبد الله القرطبي ، إمام متفنن مبحر في العلم ، من كتبه : (الجامع لأحكام القرآن و قمع الحرص بالزهد والقناعة) توفي سنة : (٦٧١هـ) ينظر : (طبقات المفسرين : ٩٧ وشذرات الذهب ج : ٧ ص : ٥٨٤ والأعلام ج : ٥ ص : ٣٢٢)

[3] انظر : الجامع لأحكام القرآن ج : ١٥ ص : ٢٣٩

[4] انظر :المحرر الوجيز : ١٦٥٩

[5] ينظر : تفسير حقي ج : ١٣ ص : ٣٧ وتفسير روح البيان ج : ٨ ص : ٢٢٥ والتفسير الوسيط ج : ١٢ ص : ٣٦٥

[6] الزمر : ٨

[7] الزمر : ٨

الله عليه وسلم . أن يقول لهذا الكافر : تمتع بكفرك قليلاً حتى موتك وانتهاء أجلك ، إنك من أهل النار المخلدين فيها.[1]

وفي الحديث عن صهيب . رضي الله عنه . قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– « عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ».[2]

ومن هنا يتبين صحة تفسير الآية بآية سورة هود ، وهو من قبيل حمل العام على الخاص والعلم عند الله تعالى .

الآية المفسرة قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ فصلت:٥٣

يخبر تعالى أنه سيري الكفار الآيات والحُجَج على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله عز وجل على رسوله . صلى الله عليه وسلم . بدلائل خارجية الدالة على صدقنا وصدق رسولنا فيما أخبرناهم به ، ودعوناهم إليه من الإيمان والتوحيد والبعث والجزاء .

وذلك في الآفاق أي من أقطار السموات والأرض ، وفي أنفسهم أيضاً أي في ذواتهم حتى يتبين لهم أنه الحق أي القرآن ﴿ٱلْحَقُّ﴾ المنزل من الله بالبعث والحساب والعقاب ، فيعاقبون على كفرهم به وبالجائي به .[1]

---

[1] ينظر : تفسير النسفي ج : ٣ ص : ٢٢٥

[2] رواه مسلم ج : ٨ ص : ٢٢٧ رقم الحديث : ٧٦٩٢ باب المؤمن أمره كله خير

تفسير القرآن بالقرآن :

أحال الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى بيان الآية إلى قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾[٢]

وبالرجوع إلى بيانه للآية قال رحمه الله : { ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه جل وعلا هو الذي يري خلقه آياته ، أي : الكونية القدرية ؛ ليجعلها علامات لهم على ربوبيته ، واستحقاقه العبادة وحده ، ومن تلك الآيات الليل والنهار والشمس والقمر ؛ كما قال تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾[٣] .

ومنها السماوات والأرضون ، وما فيهما والنجوم ، والرياح والسحاب ، والبحار والأنهار ، والعيون والجبال والأشجار وآثار قوم هلكوا ، كما قال تعالى :﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[٤]

وما ذكره جل وعلا في آية المؤمن هذه ، من أنه هو الذي يري خلقه آياته ، بينه وزاده إيضاحا في غير هذا الموضع ، فبين أنه يريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم ، وأن مراده بذلك البيان أن يتبين لهم أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم حق ، كما قال تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[٥]

والآفاق جمع أفق وهو الناحية ، والله جل وعلا قد بين من غرائب صنعه وعجائبه في نواحي سماواته وأرضه ، ما يتبين به لكل عاقل أنه هو الرب المعبود وحده . كما أشرنا إليه ، من الشمس والقمر والنجوم والأشجار والجبال ، والدواب والبحار ، إلى غير ذلك .

وبين أيضا أن من آياته التي يريهم ولا يمكنهم أن ينكروا شيئا منها تسخيره لهم الأنعام ليركبوها ويأكلوا من لحومها ، وينتفعوا بألبانها ، وزبدها وسمنها ، وأقطها ويلبسوا من جلودها ، وأصوافها وأوبارها وأشعارها ، كما قال تعالى :﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا

---

[١] ينظر : تفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٨٧ وتفسير الجلالين : ٤٩٣

[٢] غافر : ١٣و انظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٤١٠

[٣] فصلت : ٣٧

[٤] البقرة : ١٦٤ وذكر الشيخ رحمه الله تعالى آيات أخر ولكن اقتصرت على ذكر أول آية ذكرها

[٥] فصلت : ٥٣

تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾[1]

وبين في بعض المواضع أن من آياته التي يريها بعض خلقه معجزات رسله ؛ لأن المعجزات آيات أي : دلالات وعلامات على صدق الرسل ، كما قال تعالى في فرعون : ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٦﴾﴾ [2] ، وبين في موضع آخر أن من آياته التي يريها خلقه عقوبته المكذبين رسله ، كما قال تعالى في قصة إهلاكه قوم لوط : ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾[3]

وقال في عقوبته فرعون وقومه بالطوفان والجراد والقمل . . . إلخ : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾[4] الآية }[5]

وجه البيان :

جميع هذه الآيات التي ذكرت ، فيها بيان للإجمال الذي ذكره الله تعالى في سورة فصلت ، فبعد أن أ خبر الله تعالى أنه سيري هؤلاء الكفار الآيات التي تبرهن وتدل على وحدانية الله تعالى ، ذكر في هذه الآيات هذه العلامات والبراهين التي وعدهم أنه سيريهم إياها ، والتي تدل على أنه الرب المعبود بحقٍ دون سواه .

ففي آية سورة فصلت ذكر الله تعالى آيات الليل والنهار والشمس والقمر ليجعلها لهم علامات على ربوبيته وكذلك آية سورة البقرة ذكر فيها عدداً من الآيات الدالة على ذلك ، وآيتي سورة غافر بين الله تعالى أن من آياته التي يريهم ولا يمكنهم أن ينكروا شيئاً منها : تسخيره لهم الأنعام ليركبوها ويأكلوا من لحومها ، وينتفعوا بألبانها وزبدها وسمنها ، ويلبسوا من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها ، وآية سورة طه بين أن من آياته التي يريها بعض

---

[1] غافر : ٧٩ . ٨١

[2] طه : ٥٦

[3] العنكبوت : ٣٥

[4] الأعراف : ١٣٣

[5] انظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٣٧٤ . ٣٧٥

خلقه ، معجزات رسله ، لأن المعجزات آيات أي : دلالاتٌ وعلاماتٌ على صدق الرسل وآية سورة العنكبوت بين أن من آياته التي يريها خلقه ، عقوبته المكذبين رسله [1] ، وكما ذكرت أن هذه الآيات التي ذُكرت فيها بيان للإجمال الواقع في سورة فصلت واعلم عند الله تعالى .

واختلف المفسرون رحمهم الله في تفسير قوله تعالى :﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ على أقوال :

القول الأول : قال أبو المنهال[2] ، والسدي ، وجماعة : {هو وعيد للكفار بما يفتحه الله على رسوله من الأقطار حول مكة ، وفي غير ذلك من الأرض كخيبر ، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: أراد به فتح مكة ، وتضمن ذلك الإخبار بالغيب ، ووقع كما أخبر}.

القول الثاني : قال الضحاك وقتادة :{ ﴿فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ : ما أصاب الأمم المكذبة في أقطار الأرض قديماً ، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ : يوم بدر }.

القول الثالث : وهو قول عطاء[3] ، وابن زيد : {في آفاق السماء ، وأراد الآيات في الشمس والقمر والرياح وغير ذلك ، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ عبرة الإنسان بجسمه وحواسه وبغريب خلقته وتدريجه في البطن ونحو ذلك }[4].

---

[1] ينظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٣٧٤ . ٣٧٥

[2] عوف بن محلم الخزاعي، بالولاء ، أبو المنهال : أحد العلماء الأدباء الرواة الندماء الشعراء مات سنة (٢٢٠) ينظر : (الأعلام للزركلي ج : ٥ ص : ٩٦)

[3] عطاء بن أسلم بن صفوان أبو محمد القرشي مولاهم تابعي ، من أجلاء الفقهاء ، ولد سنة (٢٧) وتوفي سنة (١١٤) ينظر : (سير أعلام النبلاء ج : ٥ ص : ٧٨ . ٨٨ و الأعلام ج : ٤ ص : ٢٣٥)

[4] انظر : تفسير الطبري ج : ٢١ ص : ٤٩٣ وتفسير النكت والعيون ج : ٥ ص : ١٨٩ وتفسير البغوي : ١١٥٤ والمحرر الوجيز : ١٦٥٩ . ١٦٦٠ وزاد المسير ج : ٥ ص : ٣١٢ ومفاتيح الغيب ج : ٢٧ ص : ١٢٠ وتفسير العز بن عبدالسلام : ٥٠٧ . ٥٠٨ وتفسير القرطبي ج : ١٥ ص : ٢٤٠ والبحر المحيط ج : ٧ ص : ٤٧٩ وتفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٨٧ وتفسير الجواهر الحسان للثعالبي ج : ٣ ص : ٣٧٢ وتفسير أبي السعود ج : ٦ ص : ٦٨ وفتح القدير ج : ٤ ص : ٢٢وروح المعاني ج : ٢٥ ص : ١١ . ١٢ وتفسير روح البيان ج : ٨ ص : ٢١٥

ورجح بعض المفسرين كابن جرير وابن عطية وغيرهم من المفسرين رحمهم الله تعالى القول الأول [1]، وهو وعيد الله الكفار بما يفتحه على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حول مكة من أقطار الأرض ، وقوله سبحانه : ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾: أراد به فتح مكة .

يقول القشيري :{ السين للاستقبال ؛ أي سيظهر لهم من الآيات ومن الأحداث التي تجري في أحوال العالم ، وما سيحل بهم من اختلاف الأمور ما يتبين لهم من خلاله أن هذا الدين حق ، وأن هذا الكتاب حق ، وأن محمداً – صلى الله عليه وسلم – حق ، وأن المجري لهذه الآيات والأحداث والأمور والمنشئ له هو الحق سبحانه ، ومن تلك الآيات ما كان من قهر الكفار ، وعلو الإسلام ، وتلاشي أعداء الدين }[2].

ويقول الزحيلي : {والمعنى الثالث هو الظاهر لعمومه وانسجامه مع سياق الآيات ، فيراد من إراءة اللّه تعالى آياته في الآفاق : إقناعهم بقدرته وعظمته ، وإلزامهم بالحجة المحسوسة الملجمة لهم ، ليتبين الحق ، ويظهر لهم أن القرآن هو الحق القاطع }[3].

ومن خلال الآيات السابقة تبين لي صحة جميع هذه الأقوال ، لدلالة الآيات السابقة عليها وذلك أن الله عز وجل ذكر فيها ما يدل على ذلك .

ففي آية سورة العنكبوت ذكر الله تعالى ما يدل على القول الأول وهو وعيد الله الكفار بما يفتحه على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو نصره رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وعقوبته المكذبين ، وآية سورة البقرة وفصلت فيه بيانٌ للقول الثالث وهو أن المراد بالآيات هي الليل والنهار والشمس والقمر والرياح وغير ذلك ، فبهذه الآيات اتضح لي صحة هذه الأقوال والعلم عند الله تعالى .

---

[1] انظر : جامع البيان ج : ٢١ ص : ٤٩٣ والمحرر الوجيز : ١٦٦٠ وانظر : الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : ٨٥٤التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي : ١٩٢٩و تفسير النسفي ج : ٣ ص : ٢٧٣ (حيث لم يذكر غير هذا القول) تفسير الجواهر الحسان للثعالبي ج : ٣ ص : ٣٧٢

[2] انظر : تفسير القشيري ج : ٧ ص : ١٦٠

[3] انظر : التفسير الوسيط للزحيلي ج : ٣ ص : ٢٣٢١

الآية المفسرة قوله تعالى : ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾

فصلت: ٥٤

يخبر الله تعالى في هذه الآية أن الكفار المكذبين بآيات الله في شك من لقاء ربهم ، يعني أنهم في شك من البعث بعد الممات ، ومعادهم إلى ربهم ، لأنهم يستبعدون أن تجمع ذرات أجسادهم وأجساد الخلائق المتفرقة في أقطار الأرض ، ولكنهم لا يعلمون أن قدرة الله لا حد لها ، وأن علمه محيط بكل شيء ، وهو يعرف أين توجد ذرات كل جسم ، فيجمعها في ذلك اليوم ويعيدها إلى الحياة مرة أخرى .[1]

يقول ابن عاشور : {والمرية بكسر الميم وهو الأشهر فيها واتفقت عليه القراءات المتواترة ، وبكسر الميم وهو لغة مثل: خفية وخفية. والمرية: الشك ، وحرف الظرفية مستعار لتمكن الشك بهم حتى كأنهم مظروفون فيه }[2].

تفسير القرآن بالقرآن :

---

[1] ينظر : جامع البيان ج : ٢١ ص : ٤٩٤ وتفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ١٨٧ . ١٨٨

[2] انظر : التحرير والتنوير ج : ٢٥ ص : ٩٤

أحال الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى تفسير هذه الآية وبيانها إلى قول الله تعالى :﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾[1]

والشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى عند بيانه لآية سورة الفرقان قال رحمه الله : { ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الكفار كذبوا بالساعة أي أنكروا القيامة من أصلها لإنكارهم البعث بعد الموت والجزاء ، وأنه جل وعلا اعتد أي هيأ وأعد لمن كذب بالساعة : أي أنكر يوم القيامة سعيرا : أي نارا شديدة الحر يعذبه بها يوم القيامة .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة :﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ يدل على أن التكذيب بالساعة كفر مستوجب لنار جهنم ، كما سترى الآيات الدالة على ذلك قريباً إن شاء الله تعالى . وهذان الأمران المذكوران في هذه الآية الكريمة ، وهما تكذيبهم بالساعة ، ووعيد الله لمن كذب بها بالسعير جاءا موضحين في آيات أخر ، أما تكذيبهم بيوم القيامة لإنكارهم البعث والجزاء بعد الموت ، فقد جاء في آيات كثيرة عن طوائف الكفار كقوله تعالى :﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾[2] وقوله تعالى : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾[3]

وأما كفر من كذب بيوم القيامة ووعيده بالنار ، فقد جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾[4] فقوله :﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ بعد قوله :﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ ﴾الآية ، يدل على أن قولهم :﴿مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ ﴾ هو سبب كون النار مأواهم ، وقوله بعده :﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ﴾[5] لا ينافي ذلك ، لأن من اتخاذهم آيات الله هزوا تكذيبهم بالساعة ، وإنكارهم البعث كما لا يخفى }[6]

وجه البيان :

---

[1] الفرقان : ١١ وانظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ٤١٠ . ٤١١

[2] الدخان : ٣٤ . ٣٥

[3] يس : ٧٨

[4] الجاثية : ٣٢ . ٣٤

[5] الجاثية : ٣٥

[6] ينظر : أضواء البيان ج : ٤ ص : ١٤٣

ذكر الله تبارك وتعالى في آية فصلت أن الكفار في شك من لقاء الله تعالى ، وفي البعث والجزاء يوم القيامة ، وشكهم هذا يدل على تكذيبهم بالبعث والحساب ، ولكن الله سبحانه وتعالى لم يبين هنا جزاء من كان حاله كذلك ، ولكن بينه في آية سورة الفرقان بقوله سبحانه : ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ فتكذيبهم وشكهم بالبعث وبلقاء الله تعالى استوجب دخولهم النار والعياذ بالله تعالى ، وذلك لإنكارهم ركن من أركان الإيمان وهو الإيمان باليوم الآخر .

فآية سورة الفرقان وآيتي سورة الدخان التي بين الله تعالى فيها أن إنكارهم البعث والمعاد ، وأنهم يقولون ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا ، ولا حياة بعد الممات ، ولا بعث ولا نشور، ويحتجون بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا[1] وآيات سورة الجاثية جميعها لها تعلق بآية سورة فصلت ، حيث بين الله تعالى فيها جزاء من كذب بيوم القيامة وفي البعث بعد الموت ، وبيان أن من كان حاله ذلك فإنه كافر بالله تعالى مستحق لعقابه يوم القيامة ، وبهذا فتفسير الآية بهذه الآيات تفسير صحيح وهو من تفسير القرآن بالقرآن ، وهو من قبيل بيان الإجمال والعلم عند الله تعالى .

[1] انظر : تفسير ابن كثير ج : ٧ ص : ٢٥٦